الفصل الثاني

الماسونية

يشتمل الفصل على:

تمهيد:

الأصل اللغوي لكلمة ماسونية.

المبحث الأول:

الماسونية نشأةً وأهدافًا وتنظيمًا.

المبحث الثاني:

تآمر الماسونية علىٰ المسيحية والإسلام.

المبحث الثالث:

دور الماسونية في تقويض الخلافة العثمانية وقيام إسرائيل.

المبحث الرابع:

فروع الماسونية.

المبحث الخامس:

حكم الانتماء إلىٰ الماسونية.

الخلاصة.

مراجع مختارة.

تمهيد

الأصل اللغوي لكلمة ماسونية:

الماسونية في اللغة معناها «البناؤون الأحرار» وهي كلمة مشتقة من الكلمة الفرنسية «فرماسون» وهي مركبة من مقطعين، وهما «فرانك» ومعناها بالفرنسية الصادق أو الحر. و «ماسون» ومعناها الباني، فالماسون طبقًا لذلك هم البناؤون الأحرار[1] أو الصادقون. والواقع أن إطلاق اسم الماسونية علىٰ هذا التنظيم إطلاق حديث، وبالتحديد في القرن الثامن عشر الميلادي، وأما الاسم الأصلي لها منذ نشأتها فهو اسم «القوة الخفية»[2].



(١) نسبة إلىٰ الذين بنوا هيكل سليمان عليه السلام سابقًا - كما يدعون -. والذي يزمع اليهود بناءه ثانية علىٰ أنقاض المسجد الأقصىٰ.

(٢) انظر الماسونية في أثوابها المعاصرة د. سعد الدين السيد صالح ص/ ١٧، والحركات المناهضة للإسلام (الماسونية...) د. محمد يوسف النجرامي ص/ ٩، والماسونية بين الحقيقة والخيال ص/ ٥٠ والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ١/ ٥١٣ وأيضًا الماسونية في الميزان، سعود بن علي الصقري ص/ ١٣.



المبحث الأول

الماسونية نشأة وأهدافًا وتنظيمًا

المطلب الأول: حقيقة الماسونية

أما حقيقة الماسونية فهي: تنظيم يهودي سري، له طابع عالمي، محكم التنظيم، يهدف إلىٰ ضمان سيطرة اليهود علىٰ العالم، ويدعو إلىٰ الإلحاد والإباحية والفساد.

ولهذا التنظيم وجهان: وجه ظاهر ووجه آخر حقيقي.

أما الماسونية بحسب ظاهرها - كما يدعي المروجون لها من الماسونيين - فهي هيئة غرضها محبة الإنسان لأخيه الإنسان، ومن أهدافها الحكمة والفلاح، وممارسة التعاضد، والإصلاح الأدبي، ومن مبادئها التسامح وحرية الضمير المطلقة، والتضامن البشري، وشعارها الإخاء والحرية والمساواة، وهي كذلك تزعم أنها مؤسسة فلسفية تحب الخير والرفاه للإنسانية، وترجو التقدم والرقي، وتهدف البحث عن الحقيقة، وترمي إلىٰ تحقيق الأخلاق الحميدة، وتطبيق أسس التعاون، والتآزر، وتتخذ من وسائل الرقي المعنوي أساسًا للتعاون الاجتماعي والفكري للإنسانية جميعًا من غير اعتبار لأجناسهم، أو أديانهم، أو ألوانهم[1].

---

(١) الماسونية ما لها وما عليها، سعيد الجزائري ص/ ١٣ وما بعدها، ولعل هذا الذي أغرىٰ بعض العلماء والفضلاء إلىٰ الانتساب إلىٰ هذه الجمعية، بما ظهر لهم من أهدافها وشعاراتها البراقة، دون علمهم بخفاياها، وحقيقتها، ومقاصدها.

أما الوجه الحقيقي الآخر للماسونية فهي منظمة يهودية سرية إرهابية غامضة تهدف - كما قلنا - إلىٰ ضمان سيطرة اليهود علىٰ العالم، وجل أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، يوثقهم عهد بحفظ الأسرار ويجتمعون يما يسمىٰ بـ«المحافل» للتجمع والتخطيط، والتكليف بالمهام[1]، وهذه الحكومة العالمية السرية التي تسعىٰ الماسونية إلىٰ إيجادها تعمل علىٰ تمكين اليهود من تحقيق حلمهم المنتظر في إقامة دولة إسرائيل الكبرىٰ من نهر النيل إلىٰ الفرات، وإعادة بناء هيكل سليمان (معبده) علىٰ أنقاض المسجد الأقصىٰ[2].

يقول أحد المؤرخين المعاصرين معرِّفًا بالماسونية، وكاشفًا النقاب عن هويتها: الماسونية آلة صيد بيد اليهودية يصرعون بها كبار الساسة، ويخدعون الأمم الغافلة، والشعوب الجاهلة[3].

أما عدد الماسونيين في العالم، فتذكر المصادر أنه بلغ في الثمانينات حوالي ستة ملايين ماسوني منتشرين في أنحاء العالم علىٰ الشكل الآتي:

١- أربعة ملايين ماسوني في الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- مليون ماسوني في بريطانيا.

٣- مليون ماسوني في باقي دول العالم بما في ذلك البلاد العربية والكيان الصهيوني[4].

---

(١) انظر الموسوعة الميسرة ١/ ٥١٣ ومقارنة الأديان «اليهودية» د. أحمد شلبي ص/ ٣٢٤.

(٢) الماسونية في العراء د. محمد علي الزعبي ص/ ٢٢.

(٣) انظر حقيقة الماسونية د. محمد علي الزعبي ص/ ٧٠ والمذاهب المعاصرة د. عبد الرحمن عميرة ص/ ٢٥.

(٤) انظر أوقفوا هذا السرطان د. سيف الدين البستاني ص/ ٢٢، ٢٤ نقلاً عن الماسونية ما لها وما عليها، سعيد الجزائري ص/ ١٨ ط ١٩٨٦م - ١٤٠٧، مؤسسة النوري دمشق.

المطلب الثاني: نشأة الماسونية

تعتبر الماسونية من أخطر الجمعيات السرية، وأكثرها غموضًا، لذلك فقد اختلف المؤرخون في تحديد نشأتها اختلافًا كبيرًا، ولاسيما ما يدعيه أنصارها بأنها تنظيم إنساني كان في خدمة الجماعة الإنسانية بأسلوب التستر والخفاء، شأنه في ذلك أنه تطور بالأعمال الإنسانية (السرية) التي كانت في المجتمع الإنساني القديم في مراحل تناقضاته، وصراعاته[١].

وبغض النظر عن صدق هذا الإدعاء أو كذبه، فقد تشعبت وتعددت آراء وأقوال الباحثين في الماسونية عن تاريخ ظهورها، أو نشأتها ومن ذلك:

١- قول بعضهم أنها نشأت في هيكل سليمان الحكيم سنة ١٠١٥ ق م[٢].

٢- ومنهم من يعيد ظهورها إلىٰ الفترة التي أعقبت السبي البابلي لليهود في فلسطين سنة (٥٨٦ ق.م) وهي الفترة التي أزدهر بها دور الحاخامات ورجال الدين.

٣- وبعضهم يرىٰ أن تأسيس الماسونية يرجع إلىٰ عهد الملك هيرودوس الثاني المسمىٰ (أكديبا) حاكم فلسطين ومنطقة القدس في عام (٤٣ م) تحت اسم «القوة الخفية» وكان هدفها محاربة المسيحيين أتباع المسيح عليه السلام[٣].

٤- ومنهم من قال: إنها نشأت أثناء الحروب الصليبية (سنة ١٠٩٦ - ١٢٩١م).

٥- ومنهم من ينسب نشأتها إلىٰ جمعية الصليب الوردي التي تأسست سنة ١٦٦٦م.....الخ.

ويؤكد حنا أبو راشد اعترافه بهذا الاضطراب عند محاولة تحديد مسار الحركة

---

(١) الماسونية ما لها وما عليها، سعيد الجزائري ص/ ٢٢، والماسونية ذلك العالم المجهول ص/ ٢١.

(٢) تاريخ الماسونية، جورجي زيدان ص/ ٣٢.

(٣) انظر الماسونية منشئة ملك إسرائيل د. محمد علي الزغبي ص/ ١٦.



الماسونية، فيقول: لم ينعقد إجماع المؤرخين والباحثين علىٰ تاريخ أصفىٰ، يمكن أن يكون هو التاريخ الصحيح، الذي نشأت فيه الماسونية البناءة... إن المصادر التاريخية الواضحة لم تستطع أن تضع للماسونية تاريخًا محددًا، لأنها بوصف كونها جمعية سرية - كما كانت نشأتها قديمًا، أو جمعية ذات رموز واصطلاحات خاصة، كما هو نشأتها اليوم - حرص رجالها علىٰ أن تظل اجتماعاتهم وأعمالهم في طي الكتمان[1].

ويستبعد صاحب كتاب (أصل الماسونية) (الفرنسي) الوصول إلىٰ تاريخ محدد لنشوء الماسونية. وقد صدَّر كتابه بقوله: المخفي عن عموم العالم حتىٰ عن عموم الماسونيين، حتىٰ عن المؤرخين، والعلماء المؤلفين، والرفقاء المتعاونين[2].



المطلب الثالث: أهداف الماسونية

يجمع الباحثون علىٰ أن ثمة أهدافًا سرية هي الأهداف الحقيقية للماسونية، وهي في الوقت نفسه غير الأهداف المعلنة، بل تتناقض معها تمامًا. يقول الدكتور أحمد شلبي: وأهداف الماسونية في الظاهر تختلف اختلافًا كبيرًا عن أهدافها في الباطن وحقيقة الأمر[3]. ومن هذه الأهداف:

١- خدمة المصالح اليهودية - كما سبق - والمحافظة عليها، يقول الحاخام الدكتور إسحاق وايز: الماسونية مؤسسة يهودية، وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها، وكلمات السر فيها، وشروحها، إلا أفكارًا يهودية من البداية إلىٰ النهاية[4].

---

(١) دائرة معارف ماسونية حنا أبو راشد ص/ ٤٣.

(٢) تبديد الظلام أو أصل الماسونية، نص بالفرنسية عربه عوض الخوري عام ١٩٢٩ صادر عن مطبعة الاجتهاد بيروت نقلًا عن الماسونية ذلك العالم المجهول ص/ ٢٥

(٣) اليهودية د. أحمد شلبي ص/ ٣٢٤

(٤) نفس المصدر ص/ ٣٣٣



وجاء في دائرة المعارف الماسونية الصادرة في فلاديفيا سنة ١٩٠٦م: ويجب أن يكون كل محفل رمزًا لهيكل اليهود «هيكل سليمان بن داود» وهو بالفعل كذلك[١].

٢- محاربة الأديان القائمة - غير اليهودية - ويقصدون بالأديان هنا الإسلام والنصرانية والكثلكة بخاصة أما الديانات الأخرىٰ فلا تهتم بها.

فالمسيحية والإسلام من أقوىٰ الحواجز بين الماسونية وبين ما تريد تحقيقه من أهدافها السرية.

فالمسيحية بحكم انتشارها في العالم وخاصة في قارات أوربا والأمريكيتين. وما للمسيحية من نفوذ في بقية القارات، يجعل الماسونية - بما تمثله من فكر السيطرة علىٰ العالم - في مواجهة صعبة مع المسيحية.

أما الإسلام فإن العالم الإسلامي بكل مقوماته العقدية، ومواريثه الحضارية، ومراكزه الجغرافية، وثرواته الطبيعية يمثل السد المنيع، والعقبة الكؤود، أمام مخططات اليهود، الأمر الذي يدفع الماسونية إلىٰ مناهضة الإسلام. وهو ما يفسر لنا دعوىٰ بعض دعاتها أنهم لا يقبلون في صفوفهم إلا المسيحي، أو المسلم، ولا يقبل الوثني مثلًا، إن هدف الماسونية الأول تدمير كل مقومات العقيدة لدىٰ أتباع المسيحية والإسلام، وتكوين جمهورية عالمية لا دينية[٢].

٣- بث روح الإلحاد والإباحية بين الشعوب، وتهدف الماسونية من وراء ذلك إلىٰ فك العرىٰ التي تربط هؤلاء المتدينين بدينهم، ومن ثَمَّ حل كل روابط الالتزام والولاء لأحكام وشعائر الدين وقيمه.

يقول السيد عبد الله التل: وتنص تعاليم الماسونية السرية علىٰ تقديس الجنس، والحرية التامة لنشر الإباحية[٣].

---

(١) خطر اليهودية العالمية علىٰ الإسلام والمسيحية، عبد الله التل ص/ ١٤٨.

(٢) المؤتمر الماسوني العالمي والمنعقد في باريس سنة ١٩٠٠م.

(٣) خطر اليهودية ص/ ١٥٠.



المطلب الرابع: شعار الماسونية

اتخذت الماسونية شعارات ظاهرية وهي: الحرية، والإخاء، والمساواة، وقد حاول اليهود الانتفاع بهذا الشعار في أوربا خلال العهود التي عانى اليهود فيها مرارة الاضطهاد. فكانوا يقصدون حَسَّ الناس على أن يمنحوهم الحرية، وأن يعاملوهم بود وبدون تفرقة.

فتحت شعار الحرية أخذت الماسونية تحارب الأديان - غير اليهودية - وتنشر الفساد والفوضى في المجتمعات.

وتحت شعار الإخاء تعمل على التخفيف من كراهية الشعوب الأخرى لليهود.

وتحت شعار المساواة تنشر الفوضى الاقتصادية والسياسية، وتحرص على اغتصاب حقوق الناس، وأموالهم، وأعراضهم، وتروج للشيوعية والاشتراكية(١).

كما اتخذت الماسونية من صناعة البناء (وهم البناؤون الأحرار كما يدعون) وأدواته كثيرًا من شعاراتها، ورموزها ومنها: الزاوية، والميزان، والشاقوف...الخ، وتصنع هذه الأدوات جميعها من الخشب، وهي الأدوات التي استخدمها المهندس (حيرام آبي) في بناء هيكل سليمان(٢) وفق مزاعمهم.



المطلب الخامس: المحافل الماسونية

المحفل بالتعريف الماسوني هو: مكان يجتمع إليه (البناؤون الأحرار) للعمل، ليعملوا ويهذبوا أنفسهم بأسرار الفنون القديمة، وبعبارة أعم يطلق على الأشخاص، أو المكان، فكل اجتماع قانوني، أو جلسة منظمة لـ(البناؤون الأحرار) يدعى محفلًا،



---

(١) انظر الوجيز في الأديان والمذاهب المعاصرة، د. ناصر الغفاري ورفيقه ص/ ٤٧.

(٢) المذاهب الفكرية المعاصرة د. عبد الرحمن عميرة ص/ ٣٥ والماسونية بين الحقيقة والشعارات، محمد زكي الدين، ص/ ٥٦.

ويجب على الماسوني أن يكون تابعًا لمحفل من المحافل، وخاصةً لقانونه الداخلي، ولقانون العشيرة العام[1].

وتبنى المحافل على مثال هيكل الملك سليمان، وهو إحياء وتذكير دائم بمهمة الماسون اليهود ببناء هيكل سليمان الذي يزمع اليهود بناءه على أنقاض المسجد الأقصى في القدس.

فالمحفل الماسوني هو مجموعة أشخاص أو مقر التجمع بهدف التخطيط، والتكليف بالمهام تمهيدًا لتأسيس ديمقراطية عالمية - لا دينية - كما يزعمون.

وفي عام ١٧١٧ أعاد اليهود النظر في تعاليم الماسونية، ورموزها وغيروا فيها لتناسب الجو البروتستانتي في بريطانيا، والولايات المتحدة، وأسسوا في ذلك العام محفل بريطانيا الأعظم، وأطلقوا على أنفسهم اسم (البناؤون الأحرار) بعد أن كان فيما سبق يحملون اسم (القوة الخفية) أو المستورة، ثم ما لبث المحفل الماسوني الأعظم أن انتشرت فروعه الماسونية في أرجاء العالم على النحو التالي:

* أول محفل ماسوني في ألمانيا سنة ١٧٢٨م.
* أول محفل ماسوني في باريس سنة ١٧٣٢م.
* أول محفل ماسوني في البرتغال سنة ١٧٣٥م.
* أول محفل ماسوني في سويسرا سنة ١٧٤٠م.
* أول محفل ماسوني في هولندا سنة ١٧٤٥م.
* أول محفل ماسوني في الدنمارك سنة ١٧٤٥م.
* أول محفل ماسوني في الهند سنة ١٧٥٢م.

---

(١) القانون العمومي للشرق الاسكوتلندي السامي ص ١٦٠-١٦١ عن الماسونية نشأتها، وأهدافها د. أسعد السحمراني، ص/ ٥٠.

* أول محفل ماسوني في إيطاليا سنة ١٧٦٣م.

* أول محفل ماسوني في بلجيكا سنة ١٧٦٥م.

* أول محفل ماسوني في روسيا سنة ١٧٧١م.

* أول محفل ماسوني في السويد سنة ١٧٧٣م.

وتأسست محافل رسمية في أمريكا ابتداءً من ١٧٣٣م في بوسطن، ومن قبلها في نيويورك، وأهم المدن في الولايات المتحدة الأمريكية، ولم تأت سنة ١٩٠٧م حتىٰ كان عدد المحافل العظمىٰ في أمريكا يزيد علىٰ خمسين محفلًا، يتبعها آلاف المحافل العادية، وينخرط في عضويتها أكثر من مليون أمريكي[1].

وفي بريطانيا كذلك وبإشراف محفلها الأعظم تأسست محافل الماسون في كندا، واستراليا، ونيوزلندا، ومصر، والشرق الأوسط، وأصبح محفل بريطانيا الأعظم بالنسبة لغالبية المحافل في العالم قبلة يتوجهون إليه ويسترشدون بما يصدر عنه.



المطلب السادس: الجانب التنظيمي في المحافل الماسونية

الشيء المعلن أن الماسونية لا تفتح أبوابها لكل الناس، فتشترط لمن يريد الدخول فيها أن يكون رشيدًا، له مهنة شريفة، وثقافة لا بأس بها، حر النسب، مستقيم الخلق، لم يعرف بالطيش أو الخلاعة !!!.

وتضع الماسونية لها دستورًا علنيًا يبدو جذابًا خداعًا، توحي فيه بالعمل الصالح، وبحب الناس، وتطهير النفس، والتعاون مع الزملاء من الأعضاء تعاونًا كاملًا، وإكرام الغريب، واحترام المرأة، وتجنب المشاجرات.



(١) الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية، شاهين مكاريوس، ص ٢، بيروت، دار مارون عبود ١٩٨٣م، عن الماسونية نشأتها وأهدافها ص/ ٤٧.

وعندما يقرر قبول طالب العضوية، يتقدم ليقسم قَسَمَ الجمعية الذي يصبح بمقتضاه عضوًا، يؤدي واجبه ويتحمل مسؤولياته.

ونصُّ القسم علىٰ النحو التالي: أقسم بمهندس الكون الأعظم أنني لا أفشي أسرار الماسونية، ولا علاقاتها، ولا أقوالها، ولا تعاليمها وعاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلىٰ الأبد...

أما مراتب الماسونية فثلاث وهي:

١- الماسونية الرمزية:

ويدخل بها أتباع الديانات المختلفة، ويباشر هؤلاء طقوسًا وحركات لا يُفهم مغزاها، ويظل فيها الشخص قانعًا بألفاظ الحرية والإخاء والمساواة، سعيدًا بما يناله من عون من الأعضاء الآخرين، ذلك العون الذي كثيرًا ما يدفع العضو إلىٰ مكان الصدارة في عمله، أو يكسب له وظيفة ممتازة، أو ثراء عريقًا، مما يجعله يزيد ارتباطًا بالماسونية، وحبًا لأنظمتها[1].

وفي داخل هذا القسم توجد ثلاث وثلاثون درجة، يترقىٰ فيها العضو درجة بعد درجة بمقدار إخلاصه، وكفاءته وإقباله علىٰ الماسونية وتعاليمها، وينال العضو أسمىٰ الدرجات إذا تم انحرافه عن دينه وعن ولائه لوطنه، وأصبحت الماسونية كل عقيدته، واحتوت كل تقديره.

٢- المرتبة الملوكية أو العقد الملكي:

وأكثر أعضائها من اليهود ويطلق عليهم الرفقاء، ولا يسمح لغير اليهود بالدخول فيها إلا لمن وصل لأرقىٰ درجات الماسونية الرمزية، أي لم يعد يكترث بدين ولا وطن، وليس له مثل أعلىٰ سوىٰ الماسونية.

---

(١) مقارنة الأديان، اليهودية د. أحمد شلبي، ص/ ٣٢٦.

٣- الماسونية الكونية:

وهي أرقاها، وأعضاؤها من اليهود الخلص، ويطلق عليهم الحكماء، ورئيس هذا الفريق يلقب بالحكيم الأعظم، وهو مصدر السلطات لجميع المحافل الماسونية، ولا يُعرف أحد أعضاء هذه المرتبة، ولا مركز نشاطها[١].

وعلىٰ كل حال فإنه لم يعد خافيًا (إلا علىٰ الذين لا يألفون البحث المجرد، ولا يتقنون تعليل الحوادث) أن الماسونية لعبت دورًا خطيرًا بالسياسة العالمية وجهدت بالخفاء للاستيلاء علىٰ مقدرات الشعوب، وتقنعت بالإنسانية والمثالية، وسخرت الناس بحكمة الأفعىٰ لخدمة شعب الله المختار[٢] - اليهود -.



المطلب السابع: طريقة الانتساب إلى الماسونية

يجب علىٰ من يرغب الانتساب إلىٰ الماسونية أن يتقدم بطلب خطي عن طريق ماسوني قديم إلىٰ المحفل الذي يريد الانضمام إليه، ولا يقبل قبل أن يزكيه الكفيل ناقل الطلب، ويكون الطلب علىٰ الصيغة التالية:

حضرات رئيس المحفل.... المعتبر وأعضائه الكرام

بعد تقديم واجبات الاحترام والوقار أعرض أني أنا...... بن..... البالغ من العمر...... سنة المولود في..... والمقيم في...... ومهنتي...... بناء علىٰ ما علمته، واشتهر عن حسن مبادئ جمعيتكم الموقرة، ألتمس الدخول فيها ضمن أعضاء

(١) انظر اليهودية د. أحمد شلبي ٣٣٥ والماسونية منشئة ملك إسرائيل د. محمد علي الزعبي. ص/١١ ومكائد يهودية عبر التاريخ: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص/ ٢٠٤ وخطر اليهودية العالمية علىٰ الإسلام والمسيحية ص/١٤٥، والماسونية في الميزان د. سعود بن علي الصقري ص/ ٤٧ والماسونية ذلك العالم المجهول د. صابر طعيمة ص/ ٢١٨.

(٢) انظر الماسونية في العراء ص/ ١٠٨.



محفلكم المعتبر، وأتعهد لكم بالمحافظة علىٰ حضور الجلسات لاكتساب الفوائد إذا حسبتُ أملًا، وقبلت فيما بينكم، وطلبي هذا بإرادتي، واختياري، وأنا مالك تمام صحتي، وقوتي، بلا إجبار ولا إكراه.

اقبلوا مزيد احترامي واعتباري لجنابكم.

تحريرًا في...... سنة....... الداعي......[1]

فتجرىٰ علىٰ ذلك الطلب معادلة التزكية في حق الطالب، والتحقيقات الأولية عن أحواله، فإذا لم يكن فيها مانع من قبوله عقد مجلس خاص، وقبل بأكثرية مطلقة[2]. وعندما يقرر قبول العضوية يتقدم ليقسم قسم الجمعية، الذي يصبح بمقتضاه عضوًا كاملًا يؤدي واجبه، ويتحمل مسؤولياته[3].



(١) المصدر نفسه.

(٢) نماذج من الأعمال الخيرية، محمد منير عبده آغا الدمشقي ص/ ١٣٥-١٣٦ عن الماسونية بين الحقيقة والشعارات. محمد زكي الدين ص ٩١ ط١ ١٤٠٤ - ١٩٨٣ الدار السعودية للنشر.

(٣) مقارنة الأديان. اليهودية د. أحمد شلبي ص/ ٣٢٥.

المبحث الثاني

تآمر الماسونية على المسيحية والإسلام

المطلب الأول: تآمر الماسونية على المسيحية

لم يكن عيسىٰ عليه السلام سوىٰ رسولًا قد خلت من قبله الرسل، فقد بعث إلىٰ بني إسرائيل بدعوة التوحيد التي جاء بها المرسلون السابقون عليهم السلام كما أنه جاء لإصلاح ما فسد من شأن بني إسرائيل عبر الزمن.

لكن اليهود كفروا بالرسول الجديد لأنه لم يخرج من أورشليم، وإنما خرج من الناصرة، ومع أنه يهودي مثلهم إلا أنهم عصوه وكفروا بتعاليمه السمحة التي تجلب لهم الخير والصلاح.

فنادىٰ عيسىٰ عليه السلام فيهم - كما ورد في الإنجيل -: اذهبوا عني يا ملاعين إلىٰ النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته، لأني جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، كنت غريبًا فلم تأووني، عريانًا فلم تكسوني، مريضًا ومحبوسًا فلم تزوروني[1].

تآمر اليهود علىٰ عيسىٰ بن مريم الذي سفه بتعاليمه أحلامهم، وشذ عن خططهم الجهنمية، وأساليبهم الملتوية في الحياة وقرر الكهنة اليهود إعدام الرسول الجديد، فأشاروا علىٰ الحاكم الروماني بيلاطس النبطي أن ينفذ حكم الإعدام صلبًا بهذا الذي يدعي النبوة، ولا يعترف به اليهود، وباع المسيحَ عليه السلام واحد من الحواريين وهو «يهوذا الاسخريوطي الذي دلَّ الرومان علىٰ مكان مبيته مع حوارييه» وعادت به يهوديته إلىٰ

---

(١) إنجيل متىٰ الإصحاح / ٢٥.

طبيعتها الدنيئة الجشعة.

جاء في إنجيل متىٰ قوله: وحين ذهب واحد من الاثني عشر الذي يدعىٰ يهوذا الاسخريوطي إلىٰ رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم - فجعلوا له ثلاثين من الفضة، ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلّمه[1].

ثم لجأ اليهود إلىٰ جميع الوسائل الدنيئة للانتقام من اتباع المسيح الذين هم في ازدياد مستمر وقد أصبحوا عقبة أمام مخطط اليهود.

وجاء في كتاب (سدر حا دوروث) صفحة ١٣٧ ما يلي: إن الإمبراطور «مارك أوريل» قتل جميع النصارىٰ بناء علىٰ إيعاز اليهود، وجاء في المصدر نفسه أيضًا أنه في عام ٢١٤ بعد المسيح قتل اليهود (١٠٠) ألف مسيحي في روما وكل نصارىٰ قبرص[2].

واستمر اليهود في تدبير الفتن والاضطرابات لمعتنقي الديانة المسيحية إلىٰ أن تفتقت عبقرية الكبالا اليهودية (وهي منظمة سرية أشبه ما تكون بجهاز أمن خاص باليهود وتعمل لصالحهم ولا استبعد مطلقًا أن تكون هي القوة الخفية الماسونية التي أسسها الملك هيرودوس الثاني مع مستشاريه مؤاب لافي وأحيرام ابيود)، وقذفت بشاؤول أحد ألد أعداء المسيحية ليتظاهر بالنصرانية ثم يحول وجهة هذه الديانة برمتها من ديانة صحيحة توحيدية إلىٰ ديانة وثنية جديدة لا صلة لها بدعوة المسيح عليه السلام.

وهذا ما حدث فعلًا إذ تظاهر شاؤل بدخول النصرانية وسمىٰ نفسه بولس وادعىٰ أنه أصبح من أكثر أتباع المسيح إخلاصًا وإيمانًا[3].

---

(١) المرجع السابق الإصحاح / ٢٥.

(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود للدكتور روهلتج ترجمة الدكتور يوسف نصر الله، مطبعة المعارف ١٨٩٩م.

(٣) راجع إن شئت المطلب الثاني من المبحث الأول في فصل العلمانية التحريف والتبديل الذي طرأ علىٰ النصرانية ص/ ٦٣.



يقول الدكتور أحمد شلبي متسائلًا: ماذا أراد بولس بالمسيحية؟ لقد أحدث بولس في المسيحية أحداثًا خطيرة، نقلها من التوحيد إلىٰ التثليث، قال بألوهية المسيح، وألوهية الروح القدس، اخترع قصة الفداء، بل إنه ألغىٰ التعاليم التي نادىٰ بها عيسىٰ نفسه كالختان وعدم أكل لحم الخنزير، وفي كلمة واحدة خلق دينًا جديدًا، وسلب له كلمة المسيحية فوضعها عليه، وطمس بذلك الديانة المسيحية الحقيقية[١].



المطلب الثاني
تآمر الماسونية على الإسلام

حين بعث الله سبحانه محمدًا ﷺ برسالة الإسلام ناصبه اليهود العداء وحاربوا دعوته، ونشب الصراع بين اليهود والمسلمين منذ هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة، واتخذها مركزًا لنشر دعوته إلىٰ توحيد الله وعبادته، ورأىٰ اليهود أن الدين الجديد قد أصبح منافسًا يوشك أن يقضي علىٰ نفوذهم، وينتزع منهم الزعامة الدينية التي كانوا يدَّعونها، فكرهوا محمدًا ﷺ ونظروا إليه وإلىٰ دينه الجديد وإلىٰ أتباعه نظرة الحسد والحقد والضغينة والبغضاء، وظهرت عداوتهم لدين الإسلام واضحة جلية حينما رأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدس والإرجاف، ثم المراء والجدل فيما يعلمون وفيما لا يعلمون، وإذا سئلوا عن شيء مما في كتبهم

---

(١) المسيحية د. أحمد شلبي ص/ ١٢٤، والعجيب أن الفاتيكان يعترف إلىٰ حد كبير بموقف بولس من المسيحية وعدم حرصه عليها، فقد جاء في كتاب نشره الفاتيكان سنة ١٩٦٨ بعنوان «المسيحية عقيدة وعمل» ما يلي: كان القديس بولس منذ بدء المسيحية ينصح لحديثي الإيمان أن يحتفظوا بما كانوا عليه من أحوال قبل إيمانهم بيسوع ص/ ٥٠ وذلك أمر يستدعي الدهشة فليس لإنسان أن يسمح لمؤمن أن يظل علىٰ ما كان عليه قبل الإيمان، ولكن بولس لم يكن يهتم بالمسيحية، وكان لا يعنيه أمرها، انظر المسيحية ص ١٢٥ مع أن معظم الكنائس العالمية تنسب نفسها إلىٰ بولس متسمية بالكنائس البولسية. !!!

حرفوا الكلم عن مواضعه، وألبسوا الحق بالباطل ليكسبوا عطف المشركين بالغض من شأن الإسلام، ونبي الإسلام، لا لسبب سوىٰ كراهتهم للرسول ﷺ لما اختصه الله به من الرسالة[1]. وقد نعىٰ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[2].

ولما رأىٰ اليهود جماعة المسلمين تتكاثر والإسلام ينتشر أيقنوا أن لا سبيل للمحافظة علىٰ كبريائهم وضمان مصالحهم وسيطرتهم إلا بالقضاء علىٰ محمد ﷺ وأتباعه، لذا فقد حاولوا قتل الرسول ﷺ[3] وفشلوا، ولقد هادنهم الرسول ﷺ في بادئ الأمر، ووادعهم، وأبرم معهم العهد، فما لبثوا أن خانوا ونكثوا، وألبوا عليه وعلىٰ صحابته سائر العرب من كفار قريش وشمال الحجاز، ومالأوا الأعداء وحزبوا الأحزاب ضد المسلمين لاستئصال شأفتهم وإبادتهم، ولكن الله أحبط سعيهم، ونصر رسوله ودينه الجديد، وعلا شأن الإسلام بفضل الله. حتىٰ تفتقت العقلية اليهودية (القوة الخفية - الكبالا) مرة أخرىٰ[4] عن مؤامرة جديدة تشبه إلىٰ حد بعيد قصة شاؤل مع النصرانية، فدفعت (الكبالا) في اليمن بعبد الله بن سبأ الذي أعلن إسلامه في السنة السابعة من خلافة عثمان رضي الله عنه، وكان له دور كبير في تأليب الخوارج علىٰ عثمان رضي الله عنه حتىٰ قتل شهيدًا، ثم غلا في علي رضي الله عنه حتىٰ أدعىٰ ألوهيته، وهو أول من قال بالطعن في الصحابة، والتبرء منهم، كما أنه أول من قال بالغيبة والرجعة[5].

---

(١) اليهود وفلسطين: صبري عابد، انظر خطر اليهودية العالمية علىٰ الإسلام والمسيحية ص/ ٤٠.

(٢) سورة البقرة: آية/ ٩٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٠.

(٤) انظر الماسونية نشأتها وأهدافها د. أسعد السحمراني ص/ ٨٢، والماسونية ذلك العالم المجهول د. صابر طعيمة ص/ ٣٧٦.

(٥) تجمع المصادر السنية والشيعية علىٰ ابن سبأ من أصل يهودي من صنعاء باليمن، أسلم في خلافة عثمان رضي الله عنه، وتجمع هذه المصادر علىٰ أنه أول من قال بالغلو في تاريخ الإسلام، وقد تنبه لذلك أبو محمد =

لقد وجد ابن سبأ في أنصار علي رضي الله عنه مناخًا مناسبًا لنشر أفكاره وتحقيق غرضه، لكن الله تعالىٰ قد وعد بحفظ هذا الدين بحفظ كتابه القرآن الكريم، فلم يتحقق لعبد الله بن سبأ - بفضل الله - ما حققه شأول بالنصرانية من قبل من تحريف الدين وتغيير عقيدة التوحيد، وإن أحدث شرخًا في الإسلام بين طائفتين السنة والشيعة، والتي لا تزال آثارها حتىٰ يومنا هذا.



=الحسن بن موسىٰ النوبختي وهو مؤرخ شيعي من رجال القرن الثالث الهجري، حين قال: ومن هنا قال من خالف الشيعة إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية، انظر فرق الشيعة للنوبختي ص/ ٤٠ والملك والنجل للشهر ستاني / ١/ ١٧٤ والفرق بين الفرق للبغدادي ص/ ٢٣٥، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د. علي سامي النشار ٢/ ٢٣، وتاريخ الطبري ١/ ٢٨٥٩.

المبحث الثالث

دور الماسونية في تقويض الخلافة العثمانية وقيام إسرائيل

لقد حكمت دولة الخلافة العثمانية العالم الإسلامي ما يزيد عن أربعة قرون كانت خلال هذا التاريخ الطويل رمزًا لوحدة الأمة وتحقيق سيادتها، وسر قوتها، وكان ذلك مصدر قلق وخوف دائم لليهودية العالمية وأدواتها التنفيذية المحافل الماسونية، إضافة إلىٰ القوىٰ الاستعمارية، وكان يمثلها وقتئذ كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا.

وكان اليهود ينظرون إلىٰ الخلافة العثمانية علىٰ أنها عائق يحول دون تحقيق أطماعهم في الهيمنة علىٰ العالم وتحقيق حلمهم في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، لذلك كان القضاء علىٰ هذا الكيان وتفتيته وابتلاعه هدفًا لليهود والقوىٰ الاستعمارية وقتئذ. ويتضح ذلك من خلال المطالب التالية:



المطلب الأول: اليهود في الدولة العثمانية

بدأت طلائع اليهود تتوافد علىٰ الدولة العثمانية بعد طردهم من أسبانيا في القرن الخامس عشر ومنذ سنة ١٤٩٢م إثر قصة محاكم التفتيش المشهورة، وقد قابلهم العثمانيون بالحفاوة والتكريم، وعاش اليهود علىٰ عهد الدولة العثمانية - كما يقول المؤرخون - عصر رخاء واستقرار، أطلق عليه العصر الذهبي[1]. وقد سكن اليهود بأعداد كبيرة في منطقة أدرنة، ومدينة بورصة، والمناطق الشمالية الغربية من الأناضول،

(١) تركيا والصهيونية ص/ ٣٩ نقلاً عن اليهود والدولة العثمانية د. أحمد نوري النعيمي ص/ ٣٢.

وقد ساعد اليهود الدولة العثمانية في هذه المناطق أثناء الفتوحات، وعليه فقد كافأ العثمانيون اليهود، بأن أعطوا امتيازات خاصة بهم.

وبعد استقرار هؤلاء في الدولة العثمانية طبقت الحكومة عليهم أحكام الشريعة الإسلامية حيث تمتعوا في ظلها بقدر كبير من الاستقلال الذاتي، ووجدوا معها الرفاهية والحرية التامة بحيث أصبح لهم تسلسل هرمي في الدولة، إذ تغلغلوا في المراكز الحساسة، وبعد أن استوطنوا بكثافة في عاصمة الخلافة (بلغ عدد اليهود في استانبول في أواخر القرن السادس عشر نحوًا من عشرين ألفًا) حاولوا الوصول إلىٰ مقر السلطان العثماني بشتىٰ الوسائل والطرق إما بوصفهم أطباء، أو من خلال ثروات بعضهم الهائلة التي حملوها معهم من مواطن مهاجرهم، وهذا ساعد في تقريب بعضهم من السلاطين، كما ساعد في أن يلعب بعضهم الآخر دورًا مهمًا في مقدرات الدولة الاقتصادية[1].

ويمكن هنا أن نسجل مجموعة من الحقائق نوجزها في النقاط التالية:

١- إن اليهود لم يندمجوا في مجتمعات الدول التي وجدوا فيها، وقد أدىٰ ذلك الأمر إلىٰ تكتلهم وتركزهم في أحياء معينة في إطار هذه الدول، وكان ذلك سببًا في اتخاذ الدول الأوروبية بعض القرارات لطردهم من أراضيها.

٢- عند هجرة اليهود من أوروبا إلىٰ الدولة العثمانية اتبع اليهود نفس الأساليب التي استخدموها في القارة الأوروبية حيث قاموا بقتل بعض السلاطين كما فعلوا في قتل الكسندر قيصر روسيا في عام ١٨٨١ مع فارق أن العثمانيين لم يتبعوا سياسة العنف ضد اليهود.

٣- عند هجرة اليهود إلىٰ الدولة العثمانية نقلوا تجارب الشعوب الأوروبية إلىٰ



---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان طي ٤٨٩ ترجمة نبيه أمين قاري ومنير البعلبكي ط ٧. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧م.

الدولة العثمانية، وكان نتيجة هذه التجارب - نشوء بعض الأفكار السياسية والفلسفية التي لا تمت بصلة إلىٰ تقاليد هذه الدولة - كالعلمانية والقومية والوطنية ونحوها (كما سيأتي في فصل القومية).

٤- إن جزءًا من المسؤولية تقع علىٰ عاتق العثمانيين في استقرار هؤلاء في الدولة العثمانية، حيث إن السلاطين لم يعرفوا المخاطر اليهودية المستقبلية، وأن السلاطين انطلقوا من المفاهيم الإسلامية في مساعدة هؤلاء وإنقاذهم من اضطهاد الشعوب الأوروبية لهم[١]، وهذا يعني من جانب آخر أن السلاطين لم يكونوا علىٰ معرفة حقيقية بالشخصية اليهودية والمليئة بالنقص والكيد والمكر والأنانية.



المطلب الثاني: يهود الدولة العثمانية (الدونمة) والمحافل الماسونية

الدونمة كلمة تركية وهي صفة تعني (العائد) الذي أسلم بعد أن كان يدين باليهودية، ثم تحول معنىٰ الكلمة إلىٰ اصطلاح جديد يعني المسلم ظاهرًا اليهودي فعلًا وباطنًا، ويعنون به المنافق.

وقد لعب يهود الدونمة دورًا خطيرًا في تاريخ الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي أوائل القرن العشرين، وذلك من خلال المناصب الإدارية الكبرىٰ التي تقلدوها، ومما ساعدهم في الوصول إلىٰ هذه المراتب انخراطهم في المحافل الماسونية التركية، إضافة إلىٰ عضويتهم في الجمعيات القومية الطورانية التركية كجمعية الاتحاد والترقي[٢] والتي لعبت دورًا كبيرًا في الإطاحة بالسلطان

---

(١) اليهود والدولة العثمانية ص/ ٤٥.

(٢) وهي الجناح التنفيذي لجمعية تركيا الفتاة، ويرجع تأسيسها إلىٰ عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) وعقدت أول اجتماع لها عام ١٨٦٥ ثم انتشرت فروع الجمعية في بلاد الشام حيث تأسست لها =

عبدالحميد الثاني[1] رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن هذه الشخصيات التي تقلدت مناصب عالية في الدولة العثمانية ولعبت دورًا بارزًا في التآمر عليها ومن ثمَّ تدميرها نذكر منهم:

١- طلعت بك من أصل غجري ومن عائلة فقيرة ولد عام ١٨٧٤م تعلم الفرنسية في مدرسة الاتحاد اليهودي، انتمىٰ إلىٰ محفل الشرق الأعظم الماسوني في سلانيك، كان وزيرًا للداخلية، وعمل علىٰ نشر المحافل الماسونية، وقام بإسناد الوظائف الرئيسة في الدولة إلىٰ ولاة ومتصرفين من الماسونيين[2].

٢- عمانوئيل قره صو من أصل أسباني وهو يهودي من سلانيك وأستاذ أعظم في المحفل الماسوني المعروف (ماكدونيا ريزوتا) وقد أصبح فيما بعد عضوًا بارزًا في جمعية الاتحاد والترقي، وكان أحد أعضاء الوفد الذي نقل إلىٰ عبد الحميد نبأ خلعه في ٢٧ نيسان ١٩٠٩م، وأصبح عضوًا في المجلس النيابي العثماني مرة عن سالونيك في عام ١٩٠٨، ومرتين عن استانبول (١٩١٢ و ١٩١٤) من بين ثلاثة نواب لليهود[3].

=فروع في يافا والقدس وكان أعضاؤها من ضباط الجيش الخامس الذي كان مقره في دمشق، اليهود والدولة العثمانية ص/ ١٦١، انظر فصل القومية.

(١) ولد السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٨٤٢م شاهد عبد الحميد والده السلطان عبد المجيد ومن بعده عمه السلطان عبد العزيز يحميان حركة الأخذ عن الغرب، كما شاهد ولمس أيضًا عن قرب أطماع الدول الغربية وروسيا في الدولة، ورأىٰ أنه تدخل مرسوم ومخطط له، وفيه دمار للدولة العثمانية، تولىٰ السلطنة عام ١٨٧٦، وفي ١٣ إبريل ١٩٠٨ حدث في استانبول اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقي، عرف الحادث في التاريخ باسم حادث ٣١ مارت نتيجة تدبير أوروبي مع رجال الاتحاد والترقي، تحول علىٰ أثره عسكر الاتحاد والترقي في سلانيك ودخل استانبول، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية وتم نفيه إلىٰ سلانيك التي تعتبر من أكبر مراكز تجمع يهود الدونمة، وأنصار جمعية الاتحاد والترقي.

(٢) نفس المصدر ١٦٠.

(٣) نفس المصدر ص/ ١٩٢.

٣- رشيد باشا، ماسوني ومن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لعب دورًا هامًا في عودة الدستور - المستقىٰ من نظم الدساتير الأوروبية - إذ بعث ببرقية إلىٰ السلطان عبد الحميد الثاني أعلن فيه عن ضرورة الإعلان عن النظام الحر خلال ساعتين حرصًا علىٰ عدم قيام الأمة بالانتفاضة ضد السلطان، فأعلن السلطان موافقته علىٰ إعلان الدستور.

٤- جاويد أي دافيد من يهود الدونمة وأحد أقطاب الماسونية، وعضو بارز في جمعية الاتحاد والترقي، وكان وزيرًا للمالية بعد عزل عبد الحميد الثاني.

٥- موئيركوهين من أصل يهودي ولد عام ١٨٨٣م في سلانيك وتخرج في مدرسة الحقوق انضم إلىٰ جمعية الاتحاد والترقي عضوًا أساسيًا ومفكرًا عام ١٩٠٥ عمل من (١٩١٤-١٩١٨) أستاذًا بكلية الحقوق بجامعة استانبول، وفي عام ١٩٤٦ عين في المجلس الإقليمي لحزب الشعب الجمهوري لمدينة استانبول وفي عام ١٩٥٠م رشح هذا الحزب موئيركوهين عضوًا بمجلس الأمة التركي.

٦- مصطفىٰ كمال أتاتورك كان من أركان جمعية الاتحاد والترقي قام بدور البطل الذي تولىٰ إلغاء السلطنة ثم الخلافة عام ١٩٢٤م وعمل علىٰ سلخ تركيا عن تاريخها الإسلامي، وفرض العلمانية الإلحادية باسم تركيا الحديثة.

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلىٰ أن بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقي اكتشفوا فيما بعد - ولكن بعد فوات الأوان - أنهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية فهذا أنور باشا[١] الذي لعب دورًا مهمًا في انقلاب ١٩٠٨ يقول في حديث له مع جمال باشا[٢] أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي: أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ وبعد

---

(١) ولد في استانبول تخرج في الكلية الحربية عام ١٩٠٢ انضم إلىٰ حركة تركيا الفتاة وعين عام ١٩١٣م وزيرًا للحربية قتل في تركستان في الحرب الأهلية هناك في بداية شهر آب ١٩٢٢م.

(٢) ولد جمال باشا في استانبول عام ١٨٧٢ وخريج الكلية الحربية عام ١٨٩٥ كان حاكمًا عسكريًا في استانبول وقاد الجيش الرابع في سوريا في عام ١٩١٤ اغتيل في ١٨ أو ١٩ تموز عام ١٩٢٥علىٰ أيدي الأرمن، انظر اليهود والدولة العثمانية ص/ ٢٢٧ ومكائد يهودية: عبد الرحمن حبنكة الميداني ص/ ٢٥٤.

تحسر عميق قال: نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية، فهذا ذنبنا الحقيقي[1].

وهكذا لو تتبعنا سيرة الشخصيات المشهورة التي تولت القيادات الإدارية المدنية والعسكرية مع بداية القرن العشرين من تاريخ الدولة العثمانية لوجدنا معظمهم إما يهودًا أو ماسونيين، أو جمعوا الوصفين قد تقلدوا أعلىٰ المناصب القيادية في الدولة العثمانية من منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إلىٰ وزارة الحربية والداخلية والعدل.... الخ والحكام العسكريين وقادة الجيوش... الخ.

وهذا مؤشر صريح علىٰ حجم المؤامرة اليهودية الماسونية علىٰ الدولة العثمانية بهدف الإجهاز عليها، والاستيلاء علىٰ تركتها بالتعاون والتنسيق مع الدول الاستعمارية، ومن ثَمَّ تحقيق حلم اليهود في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين.



المطلب الثالث: الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني، وتحقيق حلم اليهود بفلسطين

في غمرة الأوضاع القلقة التي صنعها اليهود بمساعدة الماسونيين في دولة الخلافة العثمانية التركية، وأنصارهم ومؤازروهم قرر اليهود أن يرسلوا إلىٰ السلطان عبد الحميد من يفاوضه ويقدم له الرشوة المغرية حتىٰ يسمح لليهود ببعض الامتيازات في فلسطين، فأوفدوا إليه اليهودي الماسوني والثري الكبير «قره صو» فطلب مقابلة السلطان بوساطة أحد رجال البلاط (كمال بك).

ولدىٰ المقابلة قال (قره صو) للسلطان: إنني قادم مندوبًا عن الجمعية الماسونية بتكليف جلالتكم بأن تقبلوا خمسة ملايين ليرة ذهبية هدية لخزينتكم الخاصة، ومئة

---

(١) نفس المصدر السابق.

مليون كقرض لخزينة الدولة بلا فائدة لمدة مئة سنة علىٰ أن تسمحوا لنا ببعض الامتيازات في فلسطين.

فما إن أتم (قره صو) كلامه حتىٰ نظر السلطان عبد الحميد إلىٰ مرافقه بغضب وقال له: هل كنت تعلم ماذا يريد هذا الخنزير؟ فارتمىٰ المرافق علىٰ قدمي السلطان مقسمًا بعدم علمه، فالتفت السلطان إلىٰ (قره صو) وقال له: أخرج من وجهي يا سافل «فخرج رأسًا إلىٰ الباخرة فإلىٰ إيطاليا، ومنها أرسل إلىٰ السلطان البرقية التالية: أنت رفضت عرضنا وسيكلفك هذا الرفض أنت شخصيًا، ويكلف مملكتك كثيرًا»(١).

ولم ييأس اليهود من هذه المواجهة التي واجههم بها السلطان عبد الحميد، ولكنهم قرروا في المرة الثانية أن يوفدوا لمقابلته والتفاوض معه (هرتزل) زعيم الحركة الصهيونية الحديثة نفسه.

فقدم الرجل إلىٰ مركز الخلافة العثمانية يرافقه الخاخام (موسىٰ ليفي) وكان ذلك عام ١٨٩٧م، وقابلا السلطان في قصر «يلدز» وبعد أن شكر الدولة العثمانية علىٰ ما بزلته من الرعاية للأقلية من اليهود، وطلبا من السلطان منح اليهود حق سكنىٰ فلسطين واستثمارها، وعرضا علىٰ السلطان مقابل ذلك أن يقدم اليهود إليه ما يلي:

١- إنشاء أسطول بحري عثماني.

٢- دعم سياسة العثمانيين في العالم الخارجي.

٣- مساعدة السلطان في تحسين أوضاع مملكته المالية، وكانت الأوضاع المالية حرجة.

٤- إنشاء جامعة عثمانية في القدس تغني عن إيفاد الطلاب المسلمين إلىٰ أوروبا.

---

(١) وقد نشرت الوثيقة الخاصة بعرض اليهود ورد السلطان عبد الحميد الثاني أول مرة في مجلة العربي الكويتية عام ١٩٧٢م.

فلما سمع السلطان عبد الحميد منهما عروضهما قطَّب حاجبيه وقال: أظن أن إخوانكم اليهود يعيشون في رفاهية، بسبب الرعاية التي قدمتها لكم أمتي وأجدادي السلاطين، فما هي ظلامتكم التي غابت عنا؟.

فأجاب الحاخام (موسىٰ ليفي) استغفر الله يا مولانا ليس لنا أي شكوىٰ، وإنما نتمنىٰ أن نجمع اليهود المشتتين في العالم ونجعل لهم وطنًا يدعون فيه لسيدنا حتىٰ الأبد، فأجابه السلطان: إنكم تستفيدون من ثروات البلاد أكثر من باقي المواطنين، أليس كذلك يا حاخام؟.

ثم ساد الجو صمت ووجوم، فبادر (هرتزل) إلىٰ قطعه فقال: مثلًا لو رضي مولانا وباع لنا الأراضي التي ليس لها مالكون في فلسطين بالثمن الذي يقدره. فغضب السلطان وصرخ فيهما قائلًا: إن أراضي الوطن لا تباع، إن البلاد التي امتلكت بالدماء لا تباع إلا بالثمن نفسه[1].

وبعد الإطاحة بحكم عبد الحميد تسلم الحكم بصورة حقيقية أعضاء جمعية الاتحاد والترقي حيث أشرف علىٰ الدولة أركان يهود الدونمة جاويد، وقره صو، ومستر سالم[2] وغيرهم.

وبعد أن تم لليهود - بعد خلع السلطان عبد الحميد - رَحِمَهُ اللَّهُ، ما أرادوا، نظرت جمعية الاتحاد والترقي إلىٰ الصهاينة بعطف للحصول علىٰ دعم مالي للخزانة التركية المفلسة، فخففت القيود المفروضة علىٰ الهجرة، وشراء الأراضي لليهود عام ١٩١٣، وعين الصهاينة ممثلًا لهم في استانبول، وأصدروا صحيفة ناطقة باسمهم عام ١٩٠٨، ومن ثمَّ تدفق اليهود بأعداد هائلة إلىٰ فلسطين، وبمعرفة حكم الاتحاد والترقي حيث قدموا

(١) مكائد يهودية ص/ ٢٥٠، والصحوة وإعادة طريق الأمة علىٰ طريق الله، أنور الجندي ص ٢٣٢، والدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها ص ١٠١.

(٢) اليهود والدولة العثمانية ص/ ٢٢٠.

التسهيلات اللازمة لهؤلاء[1]، وتتالت خيوط المؤامرة بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني الذي ساهم في إكمال الخطة الاستعمارية بالسماح لليهود بتشكيل جمعياتهم المدنية، ومنظماتهم العسكرية المسلحة، ومؤسساتهم الاقتصادية في الوقت الذي كان الحصار والمراقبة علىٰ الشعب الفلسطيني ومنعه من كل أسباب الإعداد والقوة حتىٰ عام ١٩٤٧ حين أعلنت بريطانيا انسحابها من فلسطين وإعطاءها الاستقلال حيث كان اليهود جاهزين لإعلان قيام دولتهم الصهيونية علىٰ تراب فلسطين العربية المسلمة.

يقول الكاتب اليهودي (برنارد لويس) في كتابه (نشوء تركيا الحديثة): لقد تعاون الأخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية علىٰ إزالة السلطان عبد الحميد لأنه كان معارضًا لليهود إذ رفض بشدة إعطاء أي شبر أرض لليهود[2] في فلسطين.

فرحم الله السلطان عبد الحميد المؤمن الذي بذل ملكه وحياته في سبيل الدفاع عن فلسطين حين باعها غيره أو ساوم عليها.



(١) النشاط الصهيوني في العراق، صادق حسن السوداني ص ١٥، ١٩١٤-١٩٥٢ دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨٠.

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين. رفيق شاكر النتشة ص ٢٤ ط ٣ الرياض مطابع الشرق الأوسط ١٤٠٦هـ.





المبحث الرابع

فروع الماسونية

توطئة:

إن الجمعيات السرية الخطرة كانت ولا تزال من أهم المؤسسات التي اعتمد عليها اليهود لتنفيذ أغراضهم والوصول إلىٰ هدفهم، وقد ينشئ اليهود جمعيات لهذا الغرض، أو يوعزون بإنشائها، وقد يجد اليهود جمعيات قامت لغرض أو لآخر فيندسون فيها، وينفثون فيها سمومهم، ويوجهون أتباعها وجهتهم التي يريدون، ولا تكاد توجد جمعية ذات أسرار وأخطار إلا كان اليهود يعبثون فيها خلف الستار[1].

والذي يبحث في تاريخ الحركات الخطرة التي هبت في وجه المسيحية والإسلام يجد أن اليهود كانوا يقفون خلفها، فقد كانوا خلف جمعية فرسان المعبد، وجمعية الصليب الوردي وغيرهما من الجمعيات التي وجهت نشاطها للنيل من المسيحية، كما أن اليهود كانوا خلف السبئية، والقرامطة، والبهائية، وسائر فرق غلاة التشيع التي ناهضت الإسلام وحاولت النيل منه، كما عمدت الماسونية إلىٰ إنشاء نواد اجتماعية وثقافية للهدف نفسه كنوادي الروتاري والليونز وغيرها ولم يكن هدف الماسونية اليهودية من إنشاء هذه الجمعيات والنوادي تغيير دين المسلم أو الارتداد إلىٰ دين سواه لما يترتب علىٰ ذلك من جهود وتكاليف مادية مضنية دون أمل في بقائه علىٰ اعتناق الدين الجديد، ومن هنا كان هدف الماسونية اليهودية الاكتفاء بتضليل المسلم، ودفعه إلىٰ الانحراف والبعد عن الدين الحق.



---

(١) اليهودية د. أحمد شلبي ص/ ٣٣١.

ومن أساليبهم في التعامل مع المسلم مثلًا أن يكلموه عن الإنسانية والعمل لخيرها مع الإيمان بالله وتوحيده، ويمكن أن يحمل شعارهم لفظ الجلالة «الله» أو «الإنسانية» مع إعلان الدعوة إلىٰ توحيد الأديان، أن يصوروا له الدين علىٰ أنه أفيون الشعوب، فينحدر المسلم إلىٰ اللادينية ومنها إلىٰ المذاهب الباطنية كالإسماعيلية والبهائية وغيرها.

وسنعرض هنا بعض النماذج لهذه الجمعيات والنوادي التي وقفت في وجه الإسلام صراحة، أو التي اتخذت من التضليل أسلوبًا بهدف انحراف المسلم إلىٰ الإلحاد، أو إلىٰ العلمانية علىٰ أقل تقدير.



المطلب الأول: البهائية

أ - أصل البهائية:

تعتبر البهائية إحدىٰ أخطر الفرق الباطنية في التاريخ الإسلامي، وهي امتداد لفرقة البابية وهي فرقة باطنية أخرىٰ ظهرت في إيران علىٰ يد مؤسسها المرزا علي محمد الشيرازي سنة ١٢٦٠ هـ - ١٨٢٤م، أدعىٰ أنه الباب إلىٰ الإمام المنتظر المستور «محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر الغائب عند الشيعة الاثنىٰ عشرية، فسمىٰ نفسه الباب، وسميت دعوته البابية[(١)].

وهو لقب يقصد منه أن علي بن محمد الشيرازي هو الواسطة بين الإمام المستور والعامة من أتباعه في تبليغ أوامره ونواهيه.

وانتشرت دعوته في شيراز وطنه، ولما أطلع العلماء علىٰ حقيقة دعوته أفتوا بكفره ورفع أمره إلىٰ حاكم شيراز الشاه ناصر الدين فأصدر أمره بإعدام الباب في يوليو

---

(١) انظر دراسات عن البهائية والبابية، الأستاذ محب الدين الخطيب وآخرون ص/٥.

١٨٥٠م، وبعد إعدامه أخذ أتباعه جثته ليدفنوه علىٰ جبل «الكرمل» بعكا في فلسطين، لكي يصبح هذا المكان قبلة للبهائيين بعد ذلك.

خفت صوت البابية بعد أن لجأت إلىٰ أسلوب العمل السري، وبعد فترة من الزمن خرجت البابية من عكا سنة ١٨٦٨م بفلسطين باسم البهائية نسبة إلىٰ زعيمها الجديد ميراز حسين علي المازندراني (١٢٣٢- ١٣٠٩هـ) والذي كان يلقب بـ«بهاء الله».

ب - البهائية في عكا وبداية تاريخ جديد:

مات البهاء في عكا فأصبح مدفنه مزارًا ضخمًا لأتباعه، وخلفه ابنه «عباس أفندي» الذي كان في خدمة الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولىٰ، فأنعمت عليه بريطانيا برتبة فارس مع لقب سير، وتوفي سنة ١٩٣١م فخلفه ابن ابنته «شوقي رباني» الذي مات بعد ذلك دون أن ينجب ولدًا.

ومن الواضح أن حياة البهائية في عكا بين جماعات اليهود أثرت فيها تأثيرًا واسعًا فقطعت كل صلة لها بالإسلام، وأصبحت البهائية وجهًا آخر لليهودية والصهيونية.

وفي ظل الفكر الجديد للبهائية دفع بها اليهود إلىٰ أقطار الأرض، ورعوها بالمال ومنحوها الرعاية التامة، فأصبحت البهائية «صهيونية أمريكية» كما يسميها الكتاب المحدَثون، وأسفرت البهائية عن وجهها الصهيوني، إذ بعد وفاة مرزا «شوقي رباني» اجتمع المجلس الأعلىٰ للطائفة البهائية في إسرائيل، وانتخب صهيونيًا أمريكيًا هو «ميسون» ليكون رئيسًا روحيًا لجميع أفراد الطائفة البهائية في العالم[١].

---

(١) انظر اليهودية د. أحمد شلبي ص/ ٣٥٣، وحقيقة البابية والبهائية د. محسن عبد الحميد ص/ ١٢١ وما بعدها، والحركات المناهضة للإسلام د. محمد يوسف النجرامي ص/ ٤٠، والماسونية في أثوابها المعاصرة د. سعد الدين سيد صالح ص/ ٦٢.

ج- **معتقدات البهائية:**

تعتبر البهائية وليدة من رحم الباطنية، جمعت بين ديانات وآراء فلسفية، ونزعات سياسية، ثم اخترعت لنفسها مذهبًا وزعمت أنه وحي سماوي، والباطنية كما هو معلوم تقوم دعوتها علىٰ إبطال الشريعة الإسلامية وتقويض أركانها، ومن معتقداتهم:

١- القول بصحة جميع الأديان، وأن التوراة والإنجيل غير محرفة.

٢- توحيد جميع الأديان في دين واحد هو دين البهاء الناسخ لما قبله.

٣- إنكار عقيدة ختم النبوة محمد ﷺ، والقول باستمرارها بعد رسول الله ﷺ.

٤- رفض حقائق الإسلام، وإنكار ظواهرها وتأويلها.

٥- إنكار أسماء الله تعالىٰ وصفاته، وتأويلها بأسماء أشخاص متميزين قديمًا وحديثًا.

٦- رفض تعدد الزوجات، ومساواة المرأة بالرجل في الميراث.

٧- الاعتقاد بأن عيسىٰ بن مريم قد مات مصلوبًا.

٨- يؤمنون بالحلول والتناسخ، وحلول الله في البهاء.

٩- يرفعون شعار السلام العالمي بنبذ الحروب وإسقاط الجهاد، والتسليم لسيطرة الماسونية واليهودية علىٰ العالم.

١٠- استبدال اللغة العربية بلغة أخرىٰ سموها النورانية بهدف قطع المسلمين عن كتابهم وسنتهم[١]. ومن كتبهم المقدسة «البيان» من تأليف الميرزا علي محمد، و «الأقدس» من تأليف مرزا حسين، و «الإتقان» وكتاب «مجموع الألواح» وكتاب «الشيخ» وكتاب «الإشراقات»، و«البشارات» و «والطرازات»[٢].



---

(١) انظر الماسونية في أثوابها المعاصرة ص/ ٥٤، والحركات المناهضة للإسلام ص/ ٤٧، واليهودية ص/ ٣٥٤، والماسونية في العراء ص/ ١٢١.

(٢) حقيقة البابية والبهائية د. محسن عبد الحميد ص/ ٧٩ – ١٣٥.

د - علاقة البهائية بالماسونية والصهيونية:

كشفت البهائية عن صلتها بالصهيونية العالمية عندما عقد في إسرائيل سنة ١٩٦٨ المؤتمر البهائي العالمي، فقد كانت مقررات هذا المؤتمر هي بعينها الماسونية ومن الشواهد علىٰ هذه العلاقة:

١- المضامين التي وردت في مقررات المؤتمر مثل: الدعوة إلىٰ وحدة الأديان، والإباحية الأخلاقية(١)، وهو ما تنادي به الماسونية.

٢- خطاب عبد البهاء للبهائيين بقوله: عاملوا جميع الملل والطوائف والأديان بكل الصداقة والمحبة والمودة.... وأعلم أن الملكوت ليس خاصًا بجمعية مخصوصة، فإنك يمكنك أن تكون بهائيًا مسلمًا، وبهائيًا ماسونيًا، وبهائيًا يهوديًا(٢)، أي لا فرق بين الإسلام والماسونية واليهودية وهذا ما تدعو إليه الماسونية كدعوة للتسامح العالمي كما يزعمون.



المطلب الثاني: النوادي الماسونية

١ - نوادي الروتاري:

لم يكتف اليهود بالماسونية السرية رغم أنها تتشكل في البلدان بأشكال مختلفة، تبعًا لطبائع كل بلد ونظمه، بل أنشأت نوادي أخرىٰ علنية منفصلة عنها، تؤدي بعض مهامها تحت ستار الإخاء الإنساني أيضًا وسموها «أندية الروتاري» وتوجد هذه النوادي في العواصم والمدن الكبرىٰ، والغرض الظاهري منها هو النظر في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية، بإلقاء المحاضرات والخطب، والعمل علىٰ التقارب بين



---

(١) انظر البهائية: عبد الرحمن الوكيل ص/ ١٠٧.

(٢) نقلاً عن من البهائية؟ طه حبيش ص ٢١٧.

أتباع الديانات المختلفة، والبلدان المتعددة، أما الغرض الحقيقي فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرىٰ باسم الإخاء والود ثم يحاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلىٰ جمع المعلومات التي تساعدهم في تحقيق أغراضهم اقتصادية كانت أو سياسية[1].

أ- تاريخ نوادي الروتاري:

يرجع تاريخ هذه النوادي إلىٰ عام ١٩٠٥م حيث أوعزت الماسونية الكونية إلىٰ أحد أعضائها بإنشاء أول ناد للروتاري في مدينة شيكاغو الأمريكية.

وكان أول امتداد لهذه النوادي خارج أمريكا في إيرلندا حيث أنشئ نادٍ للروتاري في (دبلن) سنة ١٩١١م، ثم تتابع بعد ذلك تأسيس فروع له في مختلف مدن بريطانيا، وتعتبر (لندن) الآن المقر الأساس للروتاري الدولي الإقليمي «بريطانيا العظمىٰ»، و«إيرلندا».

وفي أوروبا تأسس أول نادي من هذا النوع في مدينة «مدريد» بأسبانيا سنة ١٩٢١م ثم أغلقت هذه النوادي بعد ذلك في كل البلاد الأسبانية لما لوحظ عليها من النشاط الهدام الخطير علىٰ البلاد.

وفي سنة ١٩٤٧م انتشرت هذه النوادي فيما يقرب من ثمانين دولة، وأصبح لها ما يقرب من (٦٨٠٠) نادي يضم ٣٢٧٠٠٠ عضوًا[2].

ثم واصلت هذه النوادي انتشارها بصورة اضطرادية عجيبة حتىٰ وصل عدد النوادي إلىٰ (٢٢) ألف نادي، تضم أكثر من مليون عضو منتشرة في (١٦٠) دولة، حسب إحصائية سنة ١٩٨٦م[3].



(١) انظر اليهودية د. أحمد شلبي ص/ ٣٣٦.

(٢) حقيقة نوادي الروتاري، كتاب جامعة المنصورة ص/ ١٢.

(٣) حقيقة نوادي الروتاري، أبو إسلام أحمد عبد الله ص/ ١٣، والماسونية في أثوابها المعاصرة ص/ ٦٥.

ولنوادي الروتاري فروع في إسرائيل، وبعض الدول العربية مثل مصر والأردن ولبنان ودول المغرب العربي[1].

ب- طريقة اختيار أعضاء النادي:

يتم اختيار الأعضاء الذين يستحقون الانضمام إلىٰ النادي وفق مخطط دقيق يتم من داخل النادي لا من خارجه، وهي وإن لم تكن شروطًا مكتوبة إلا أنها معلومة سرًا بين أعضائه ومن هذه الشروط:

١- أن يكون من أصحاب الأموال، والسلطان، والمراكز العالية في المجتمع (فلا مكان للعمال والفقراء في هذه النوادي) وذلك بعد دراسة وافيه ومتأنية لحال من يراد ضمه إلىٰ عضوية النادي.

٢- أن يكون عديم الحماس لوطنه، وضعيف الارتباط به، لأن النوادي تهدف إلىٰ «تفاهم وسلام عالمي» وهذا لا يتم مع المتعصبين للوطن وشديدي الولاء له.

٣- أن يكون العضو متسامحًا غير متحمس لشعائره وتعاليمه الدينية، لأن الزمالة الروتارية تتعالىٰ فوق الأديان، وتستبدل الرابطة الإنسانية برابطة الدين رغم اختلاف انتماءاتهم الدينية[2].

ج- أنواع نوادي الروتاري:

إمعانًا في إحكام قبضة الماسونية علىٰ سائر فئات المجتمع التي يمكن الاستفادة منها في تحقيق أهداف هذه النوادي قسم الموجهون هذه النوادي إلىٰ أربعة أقسام:

١- نوادي الروتاري العامة وهي تختص بالكبار من الرجال.



(١) انظر الموسوعة الميسرة ١/ ٥٥٤.

(٢) انظر الماسونية في أثوابها المعاصرة ص/ ٧١.

٢- الإنرويل: وهي أندية خاصة بالسيدات زوجات وشقيقات أعضاء النادي.

٣- الروتر آكت: تضم أبناء وأشقاء وبنات وشقيقات أعضاء وعضوات أندية الروتاري والأنرويل ممن لا يقل عمرهم عن ١٨ سنة ولا يزيد عن ٢٨ سنة، بما يؤهلهم لأن يكونوا جيلًا جديدًا متحررًا من الدين والأخلاق.

٤- الإنتر آكت: وهو خاص بطلبة المدارس الإعدادية والثانوية ممن تقل أعمارهم عن ١٨ سنة، وقد أضيف إليهم أطفال الحضانات وهؤلاء يخضعون لبرنامج تعليمي مكثف يضمن الولاء الكامل لنوادي الروتاري وأهدافها، حيث يتعلمون المساواة بين الجنسين والتعود علىٰ الاختلاط، وحرية الجنس، وعدم الخجل من الأعضاء التناسلية[١]، بحيث يشكلون الجيل الذي تهدف الماسونية إلىٰ إيجاده، ولعل المتأمل في أقسام النوادي الروتارية يدرك بحق أنه أمام خطة محكمة تمسك بخناق المجتمع وتلابيبه، وهذا يدل بدوره علىٰ الخطط الماكرة التي تحيكها الماسونية بهدف توجيه المجتمعات، ومن ثَمَّ السيطرة عليها، وإفساد دينها وأخلاقها، والتنكر لأوطانها.

٢- نوادي الليونز:

ومعنىٰ الليونز «الأسود» جمع أسد وهي ترمز للإقدام والقوة والنشاط.

وهي مجموعة نوادٍ ذات طابع خيري اجتماعي في الظاهر، لكنها لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات العالمية التابعة للماسونية التي تديرها أصابع يهودية بغية إفساد العالم، وإحكام السيطرة عليه[٢].

ويذكر الدكتور الزعبي بأن نادي الليونز تأسس عام ١٩٥١م في نيويورك ونقل إلىٰ واشنطن وصار له فروع في العالم، وجل أعضائه ملوك ورؤساء ونواب، وذو مراكز محترمة.



(١) انظر الروتاري في قفص الاتهام ص/ ١٣٦.

(٢) انظر الموسوعة الميسرة ١/ ٥٢١.

وتتفق نوادي الليونز مع الروتاري في طريقة الدعوة والانتشار حيث يعلن على الناس مبادئ وأهداف خادعة وهي:

١- تنمية روح التفاهم بين شعوب العالم.

٢- البعد عن الجدل في المسائل السياسية والدينية.

٣- خدمة المجتمع من خلال المشروعات الخيرية.

ولا تختلف شروط العضوية فيها عن شروط العضوية في النوادي الماسونية الأخرى لكنها تتميز عنها بأنه لا يستطيع أحد أن يتقدم لطلب الانتساب إليها، وإنما هم الذين يرشحون العضو إذا رأوا مصلحة لهم فيه[1].

وتتمثل خطورة هذه النوادي فيما يلي:

١- نشاطاتها الخيرية في الظاهر مصيدة تخفي وراءها أهدافها الحقيقية.

٢- سعيها للتعرف على أسرار المهن ليعطيهم القدرة على التحكم في السوق المحلية، كما يساعد على تدخلهم في الشؤون الاقتصادية للبلد الذي يعملون فيه.

٣- جمعها للمعلومات المتعلقة بالشؤون السياسية والدينية للبلد الذي يعملون فيه وإرسالها إلى مراكز المنظمة العالمي للقيام بتحليلها، ووضع الخطط اللازمة والمناسبة حيالها.

٤- إقامتها للحفلات المختلطة الماجنة تحت شعار «الحفلات الخيرية»[2].



---

(١) المصدر نفسه، محمد علي الزعبي ص/ ١٥٩.

(٢) الموسوعة الميسرة ١/ ٥٢٧.

المطلب الثالث: جمعية بناي برث (أبناء العهد)

أسسها يهودي ألماني من هامبورغ هاجر إلىٰ أمريكا عام ١٨٤٣م، وهي فرع من الماسونية العالمية، وتختلف عنها في أنها لا تضم إلىٰ محافلها غير اليهود، واتخذت من نيويورك مقرًا لها، ومنها انتشرت إلىٰ كافة أنحاء العالم علىٰ شكل محافل ماسونية يهودية خالصة.

تعمل هذه الجمعية باسم الدعوة لحب الخير والعمل الإنساني، وتتلخص أهدافها في مساعدة الضعفاء من اليهود والعطف علىٰ المضطهدين منهم.

وكان أخطر محافل هذه الجمعية تلك التي أنشئت في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وذلك لأنها تغلغلت في صميم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لهذين البلدين.

وتولت محافل (بناي برث) التصدي لكل من يتعرض لليهود أو يحاول الكشف عن خططهم وأخلاقهم القذرة، وغدت هذه الجمعية سيفًا مُسْلطًا علىٰ رقاب الشعب في بريطانيا وأمريكا وبقية أنحاء أوروبا، واستخدمت هذه الجمعية مختلف الوسائل لإسكات الألسن وتحطيم الأقلام لمنعها من التعرض لليهود الذين يعيشون في بلاد العالم فسادًا أو تآمرًا وتخريبًا.

أسهمت الجمعية في جميع الثورات والحروب التي وقعت في القرنين التاسع عشر والعشرين، كالثورة الفرنسية، والحرب العالمية الأولىٰ، ومهدت للحرب العالمية الثانية التي خسر العالم فيها الكثير وربحها اليهود في النهاية.

أما بالنسبة لفلسطين فإن جمعية بناي برث كانت قد أنشأت في سنة ١٨٨٨م أول محفل ماسوني للجمعية، ثم أسهمت في تأسيس بعض المستعمرات الصغيرة في فلسطين، خالقة بذلك نواة الوطن القومي اليهودي.

ولم تزل جمعية بناي برث قوة يهودية عاتية تسيطر علىٰ مقدرات حكومات غربية عديدة وخاصة في أمريكا وبريطانيا، ولم تزل سلاحًا ماضيًا في يد اليهودية العالمية تستخدمه للسيطرة علىٰ العالم[1].



المطلب الرابع: منظمات ماسونية أخرى

١- منظمة بلوتو الماسونية:

وهم جماعة من أصحاب المليارات من اليهود، وهم الذين يتحكمون في الحياة التجارية والاقتصادية للدول، ويستخدمون رؤوس أموالهم الضخمة لتسيير الحياة التجارية العالمية، وإن أرادوا إزالة كيان دولة اقتصاديًا أو سياسيًا سعوا إلىٰ ذلك، كما أنهم يتحكمون في تسيير البنوك الصناعية الضخمة.

ومن المعروفين من تلك الزمرة «يعقوب شيف» من يهود نيويورك. وأيضًا «بيرين لاه بيرون» اليهودي الأمريكي، وصاحب ٤٤٦ معمل سلاح[2].

٢- منظمة الريفورم الماسونية[3]:

وينتسب إلىٰ هذه المنظمة بعض الزعماء السياسيين، والصحفيون والمؤلفون والطلبة الجامعيون، وممن ينتسب لهذه المنظمة الماسونية «أمان الله خان» ملك الأفغان السابق، «وعلي رضا بهلوي» إمبراطور إيران السابق، ومنهم «أمين سلمان[4]» صاحب جريدة «وطن» التركية واسعة الانتشار والتي تصدر في استانبول[5].

---

(١) انظر خطر اليهودية العالمية، عبد الله التل ص/ ١٥٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر الماسونية ذلك العالم المجهول د. صابر طعيمة ص/ ٣٨٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨٧.

(٤) أصله من يهود سلانيك في اليونان وهو من يهود الدونمة.

(٥) الماسونية ذلك العالم المجهول ص/ ٣٨٧.

ولعل هذه الصورة المصغرة لعدد التنظيمات الماسونية تعطي القارئ فكرة واضحة عن الطريقة الخطيرة التي تعمل علىٰ أساسها اليهودية العالمية التي اتخذت من الماسونية العالمية وسيلة لها تختفي وراءها وتدفع بأعضائها من العميان الصغار والكبار ليخوضوا مع اليهود في تحقيق أحلام إسرائيل في بناء هيكلها المتهدم، وأهدافها البعيدة في السيطرة.





المبحث الخامس

حكم الانتماء إلى الماسونية

سوف استعرض هنا بعض الأحكام والفتاوىٰ طبقًا لتسلسلها التاريخي حتىٰ تقوم الحجة علىٰ أولئك المخدوعين بها.

والغريب في الأمر، أن كَشْف اللثام عن حقيقة الماسونية لم يكن وليد هذا القرن، بل إن الكنائس المسيحية علىٰ اختلاف مذاهبها قد فطنت إلىٰ خطورة الماسونية، وحذرت أتباعها من الانضمام إليها منذ أكثر من قرنين علىٰ الأقل.

ففي عام ١٧٣٧م أصدر البابا «لويس الخامس عشر» مرسومًا بمناهضة الماسونية، وتجاوبت مع البابوية بطركيات الكاثوليك في العالم، مثل البطريارك مسعد في لبنان سنة ١٨٩٩م، والبطريارك إلياس سنة ١٩٠٢م، وكذلك أصدرت الكنائس الأرثوذكسية مرسومًا مماثلًا سنة ١٧٤٤م.

وفي عام ١٩٥٥م أعلن الفاتيكان التحذير التالي: دفاعًا عن العقيدة وعن الفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلىٰ الهيئة المسماة بنادي الروتاري، وعدم الاشتراك في اجتماعاتها، وإن غير رجال الدين مطالبون بمراعاة المرسوم رقم ٦٨٤ الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها[١].

أما بالنسبة لحكم الإسلام في الانتساب للبهائية:

فليس من شك في أن البهائية فرقة باطنية لا تمت إلىٰ الإسلام بصلة، وإن ادعوا

(١) راجع اليهودية د. أحمد شلبي ص/ ٣٣٧.

ذلك، كما أنها أصبحت ألعوبة بأيدي الصهيونية أعداء الإسلام، تستخدم وسيلة لتفريق الأمة ومحاربة الإسلام بمبادئ وأساليب لا تخفىٰ علىٰ المتتبعين لتاريخ الحركة البهائية، ومبادئها التي أعلنتها، وهذا ما يؤكده المجمع الفقهي الذي استعرض شأن هذه الحركة بعد دراسة تاريخها ومبادئها، وأصدر في ذلك القرار التالي:

لقد استعرض مجلس المجمع الفقهي المنعقد في مكة المكرمة في دورته الأولىٰ نحلة البهائية، وأصدر المجلس قرارًا يحذر المسلمين في جميع بقاع الأرض من هذه الفئة المجرمة الكافرة، ويهيب بهم أن يقاوموها، يأخذوا حذرهم منها، لاسيما أنها قد ثبت مساندة الدول الاستعمارية لها لتمزيق الإسلام والمسلمين[1].

أما بالنسبة إلى الماسونية عمومًا:

فقد أصدر المؤتمر الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة عام ١٩٧٤م تحذيرًا جاء فيه: الماسونية جماعة سرية هدامة لها صلة وثيقة بالصهيونية العالمية التي تحركها، وتدفعها لخدمة أغراضها، وتتستر تحت شعارات جذابة كالحرية والإخاء، والمساواة، وما إلىٰ ذلك مما أوقع في شباكها كثيرًا من المسلمين، وقادة البلاد وأهل الفكر، وعلىٰ الهيئات الإسلامية أن يكون موقفها من هذه الجمعيات علىٰ النحو التالي:

١- علىٰ كل مسلم أن يخرج منها فورًا.

٢- تحريم انتخاب أي مسلم ينتسب لها لأي عمل إسلامي.

٣- علىٰ الدول الإسلامية أن تمنع نشاطها داخل بلادها وأن تغلق محافلها وأوكارها.

٤- عدم توظيف أي شخص ينتسب لها، ومقاطعته مقاطعة كلية.



٥- فضحها بكتيبات ونشرات تباع بسعر التكلفة، وتعامل كل من النوادي التالية معاملة

(١) جريدة المدينة المنورة الصادرة يوم الأحد ٢ - ١١ - ١٣٩٩ والموافق ١٩٧٩ عدد ٤٧٠٤.

الماسونية: نادي الروتاري - نادي الليونز - حركات التسلح الخلقي - أخوان الحرية[1].

وفي سنة ١٩٧٨م أصدر المجمع الفقهي المنعقد في مكة المكرمة فتوى بتكفير كل من ينتسب إلى الماسونية والروتارية والليونز، كما تبين للمجتمعين من العلاقة الوثيقة بين الصهيونية وهذه الأوكار[2]، والله أعلم.





---

(١) انظر اليهودية المرجع السابق ص/ ٣٤٩.

(٢) انظر الماسونية في المنطقة ص/ ١٧٦، والماسونية في أثوابها المعاصرة ص/ ١١٦. والماسونية ذلك العالم المجهول ص/ ٤٤١.



الخلاصة

الماسونية تنظيم يهودي سري، غامض الأهداف، يسعىٰ للسيطرة علىٰ العالم، يرفع شعار الأخوة الإنسانية، وخدمة البشرية، ونشر قيم المساواة والحرية، من غير اعتبار لاختلاف الدين والقوميات، وهو في الوقت نفسه يسعىٰ لنشر الإباحية والإلحاد، وينحصر نشاطه في أوساط الصفوة السياسية، والاجتماعية، والأدبية.

تأسست الماسونية وفق رأي كثير من الباحثين - في عهد الملك هيرودوس الثاني عام ٤٣م باسم (القوة الخفية)، وفي القرن الثامن عشر عرفت باسم (الماسونية) ومعناها (البناؤون الأحرار).

لهم تجمعات خاصة في أماكن محددة تعرف باسم المحافل الماسونية، ولها ثلاث مراتب: الماسونية الرمزية، (وتشتمل علىٰ ثلاث وثلاثين مرتبة)، والمرتبة الملوكية، والمرتبة الكونية. ولها فروع في شتىٰ أنحاء العالم، وتسعىٰ كلها إلىٰ تحقيق أهداف اليهود في السيطرة علىٰ العالم لخدمة الأهداف الصهيونية.

تآمرت الماسونية علىٰ الإسلام ومن قبله علىٰ المسيحية من خلال تخطيط منظم يسعىٰ لإفساد الديانتين، والقضاء علىٰ أتباعهما، وكان للماسونيين اليهود دور بارز في سقوط الدولة العثمانية التي حكمت العالم الإسلامي ما يزيد عن أربعة قرون، وبعد سقوطها تحقق حلم اليهود في قيام وطن قومي لهم في فلسطين.



وهناك فرق وجمعيات وتنظيمات تعمل لخدمة الأهداف الماسونية اليهودية: كالبهائية، ونوادي الروتاري، والليونز، ومنظمة شهود يهوه، وجمعية بناي برث، وغيرها. وهي منتشرة في العالم وبعض البلدان الإسلامية. وقد جاء التحذير من المنظمات الماسونية اليهودية عبر بيانات من بابا الفاتيكان، والمجامع الفقهية، والمؤتمرات الإسلامية، والتي دعت إلىٰ مقاومتها وتحريم الانتساب إليها ومقاطعة أعضائها، وفضحهم بكل الوسائل الممكنة، والحكم بتكفير كل من ينتسب إلىٰ الماسونية، أو منظماتها المعروفة، إذا علم العضو أهداف الماسونية وحقيقة دعوتها.



الفصل الرابع

القومية

يشتمل الفصل على:

تمهيد.

المبحث الأول:

الفكر القومي في أوروبا.

المبحث الثاني:

الدعوة القومية في الدولة العثمانية.

المبحث الثالث:

الدعوة إلىٰ القومية العربية.

المبحث الرابع:

عناصر القومية وإشكالياتها.

المبحث الخامس:

المواقف من القومية العربية.

الخلاصة.

تمهيد

القومية لغة نسبة إلىٰ القوم، وقوم الرجل شيعته وعشيرته، للرجال دون النساء، ويقول صاحب لسان العرب: وربما دخل النساء فيه علىٰ سبيل التبع، لأن قوم كل نبي رجال ونساء، والجمع أقوام(١).

أما في الاصطلاح فالقومية شعور بالانتماء والولاء إلىٰ مجموعة متحدة يشتركون في أصل عرقي واحد، وروابط تاريخية، ولغة مشتركة، وإن تعددت أوطانهم(٢)، أما إذا كان الوطن موحدًا فيكون الولاء للقوم مصحوبًا بالولاء للأرض.

وكان أول ظهور للفكر القومي في أوروبا أواخر القرن السادس عشر، ولكن قيام الدول الأوروبية علىٰ أساس قومي كان بعد نجاح الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر.

وفي هذه الأثناء كانت أنظار الدول الأوروبية الاستعمارية تتجه نحو دولة الخلافة العثمانية، حيث بلغت أشد مراحل الضعف والانحلال، حتىٰ أطلق عليها لقب «الرجل المريض».

وسعت الدول الغربية إلىٰ تصدير الدعوة القومية إلىٰ المجتمعات المنضوية

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة قوم، والصحاح للجوهري مادة قوم، وكذلك ترتيب القاموس المحيط.

(٢) الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام، منير محمد نجيب ص/ ١٣٧، مكتبة المنار ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م الزرقاء الأردن.

تحت سلطان الخلافة العثمانية ذات الأعراق والمذاهب والديانات المختلفة، بقصد تفتيت وحدة الدولة الإسلامية وتمزيقها.

يقول الأستاذ محمد قطب: وقد كانت دعاوىٰ القومية والوطنية المصدَّرة عن عمد إلىٰ العالم الإسلامي من بين وسائل الغزو الفكري الذي استخدمه الصليبيون المحدَثون في غزو العالم الإسلامي[1].

وقد بدأت فكرة القومية تتسلل إلىٰ العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وترسخ هذا الفكر وصار له دعاته ومروجوه في مطلع القرن العشرين - كرابطة إنسانية تجمع أبناء القومية الواحدة بعيدًا عن الدين.

وكانت الدعوة إلىٰ القومية قد بدأت في تركيا ببعث العصبية للطورانية - نسبة إلىٰ جبل توران في غرب تركيا -، مقدمة لمثيلتها علىٰ الجبهة العربية بهدف إزاحة الإسلام، وإحياء العنصرية باسم العروبة الجاهلية، أو العروبة العلمانية، وكان الهدف من هذا كله هو تدمير قوة سلطان الدين، والقضاء علىٰ الدعوة للجامعة الإسلامية ومن ثَمَّ النظام الإسلامي كمنهج مجتمع ودولة، بإثارة العصبات والقوميات، والأقليات في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

لقد استشعر أعداء الإسلام خطورة وحدة المسلمين، وولائهم لعقيدتهم وتاريخهم المجيد، والذي مكَّنها من الصمود لفترة طويلة أمام الحملات الصليبية المتكررة علىٰ العالم الإسلامي، فعملوا علىٰ تفتيت هذا الكيان وإضعافه بإحلال رابطة القومية محل رابطة الدين - الإسلام - وهي الرابطة التي جمعت المسلمين عبر ثلاثة عشر قرنًا في مقابل أتباع الديانات الأخرىٰ يهودية أو نصرانية أو غيرها.



(١) مذاهب فكرية معاصرة ص/ ٧٦.

المبحث الأول

الفكر القومي في أوروبا

المطلب الأول: نشأة الفكر القومي في أوروبا

في القرون الوسطىٰ كان التفكير الذي يغلب علىٰ الشعوب الأوروبية هو الولاء للكنيسة، أو الطبقة أو الإقليم، وكان أكثر ما يشغل تفكير الناس هو السؤال عن الدين وآدابه.

ويذهب كثير من الباحثين في تاريخ الفكر الأوروبي إلىٰ أن الثورة الفرنسية التي قامت أواخر القرن الثامن عشر هي البداية الفعلية لظهور الفكر القومي والوطني في أوروبا(١).

إلا أن بوادر التوجهات القومية ظهرت في أقوال وكتابات بعض المفكرين الغربيين قبل الثورة الفرنسية بزمن أمثال:

- لاوىٰ بن بزاليك - يهودي - في أواخر القرن السادس عشر.
- وليم كامدن - البريطاني - (١٥٥١ - ١٦٢٣م).
- ملتون - البريطاني - (١٦٠٨ - ١٦٨٤م).
- ليبنز - الألماني - (١٦٤٦ - ١٧١٦م).

ولا يختلف سبب ظهور الفكر القومي والوطني في الغرب عن أسباب ظهور التيارات الفكرية الحديثة الأخرىٰ(٢)، كالعلمانية والليبرالية والديمقراطية والبرجماتية

---

(١) انظر الفكر التربوي عند ساطع الحصري د. محمد بشير حداد ص٤٠، وهذا بالنسبة لأتباع الديانة المسيحية، أما بالنسبة لليهود فهم أكثر الناس غلوًا في القومية والعنصرية، ولا يزالون إلىٰ اليوم، بل ربما كان لليهود السبق في تعليم غيرهم من الأمم التعصب العرقي الذميم المغالىٰ فيه جدًا، فإن الأمم الأخرىٰ وإن كانت كل أمة تتعصب لقوميتها إلا أنها لم تبلغ حدًا يفوق اليهود، وإنما قد يقال: إن أكثر الأمم عصبية ظهرت تبعًا لليهود، كما حدث للقومية النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، فهي قد ظهرت متأثرة بالتعصب اليهودي.

(٢) وعن الأصل الأوروبي للفكر القومي والوطني يقول فرنارد لويس: فالليبرالية، والفاشية، والوطنية، والقومية، والشعوبية، والاشتراكية كلها أوروبية الأصل مهما عدَّلها أتباعها في الشرق الأوسط، =

وغيرها، وهي تمثل رد فعل طبيعي لتسلط الكنيسة وطغيانها، لاسيما بعد أن تحالفت مع الملوك، والإقطاع، وما ترتب عليه من ظلم وطغيان وعدوان علىٰ كرامة الشعوب الغربية، وذلك في غياب الدين الرباني الصحيح الذي لم تعهده أوروبا أصلًا - كما أوضحت ذلك في فصل العلمانية -.

لقد كان تعلق الناس بالفكرة القومية أو الوطنية في أوروبا تعبيرًا عن انعتاقهم من ربقة الاستبداد، وسعيهم لإيجاد روابط أخرىٰ يجتمعون عليها، تتحقق فيها كرامتهم المسلوبة، وحقوقهم الضائعة بعيدًا عن الدين والكنيسة.

فرغم اختلاف فلاسفة الغرب ومفكريهم في تحديد مفهوم القومية وعناصرها التي تقوم عليها إلا أنهم لم يختلفوا علىٰ مسألة إبعاد الدين عن الحياة، وإقصائه عن تنظيم شؤون الدولة.

ولم يقف الأمر بدعاة القومية والوطنية في أوروبا عند هدف التخلص من ظلم الكنيسة وتعسف أهل الثراء من الإقطاع والنبلاء، بل سرعان ما تحول الوضع إلىٰ أن تتشكل من الدول الأوروبية القومية أو الوطنية قوىٰ كبرىٰ تتطلع إلىٰ استعمار الدول الضعيفة واستعبادها، واستغلال خيراتها، بل إن العصبيات القومية والوطنية لدىٰ الدول الغربية نفسها سرعان ما تفاقمت وتعارضت مصالحها، ومطامعها فيما بينها للسيطرة علىٰ الأمم الأخرىٰ، ومن ثمَّ تنازعت علىٰ مراكز القوة مع ما صاحب ذلك من نمو سريع للثقافات القومية والوطنية لدىٰ الشعوب الغربية مما دفعها إلىٰ أتون حروب طاحنة - في الحربين الأولىٰ والثانية في النصف الأول من القرن العشرين - والتي أودت بحياة عشرات الملايين من البشر. وبعد هذا التطاحن والصراع المرير شعر الغرب أن الحضارة والتقدم والمصالح القومية والوطنية العليا لا تنسجم مع آفاق العصبية القومية والوطنية، فلفظت أوروبا القومية، والوطنية، واتجهت نحو التكتلات الاقتصادية والسياسية كبديل عن الرابطة القومية والوطنية، وقام علىٰ أنقاضها السوق الأوروبية المشتركة، وحلف الأطلسي، وحلف الناتو، والعملة الأوروبية الموحدة وغيرها.



=انظر الغرب والشرق، نبيل صبحي ص/ ١٧٩، عن كتاب فكرة القومية في ضوء الإسلام د. صالح العبود ص/ ٣٦٥.

المطلب الثاني: الثورة الفرنسية وبلورة المشاعر القومية والوطنية

لقد تبلورت الفكرة القومية مع قيام الثورة الفرنسية والتي ترجع في أساسها إلىٰ المفكر الفرنسي (جان جاك روسو) في نظريته (العقد الاجتماعي) والتي يريد منها ترابطًا بين المواطنين باعتبار أنهم متساوون في الوطنية، فلا ينظر إلىٰ أديانهم، وعقائدهم، ومللهم، وكان يحبذ التربية للفكرة القومية، ويرىٰ أن التربية هي التي يجب أن تعطي النفوس الشكل القومي، وتوجه الآراء والأذواق لدىٰ الأجيال لتجعلهم وطنيين بالهوىٰ والميل(١). لذلك فقد عمد الفرنسيون إبان تورثهم إلىٰ استبدال اللغة الفرنسية في التعليم باللغة اللاتينية، وأولَوا الاحتفالات بالأعياد الوطنية عنايتهم، وأخذوا خلال الثورة يرتدون الملابس القومية الفرنسية، وبذلت جهود متواصلة من أجل إيقاظ الشعور القومي لدىٰ الأفراد كما دعا إلىٰ ذلك روسو.

وانتشر التعليم السياسي الوطني الذي التزمته الثورة الفرنسية في أوروبا وأمريكا انتشارًا كبيرًا، وقامت جميع الأمم صغيرها وكبيرها علىٰ جعل العليم مجانًا لإيجاد مواطنين صالحين لهم تعلق بأمتهم، ولديهم الاستعداد الكامل للتضحية من أجلها(٢). والافتخار بأرضها وتاريخها وشعبها وإنجازاتها والاعتزاز بثقافتها وما تحويه من عادات وتقاليد والرغبة الأكيدة في الحفاظ علىٰ قواعد هذه الثقافة.

واتخذ هذا الوعي درجتين، العاطفة الوطنية وتتمثل في حب الوطن، والدرجة الأخرىٰ التفكير القومي، والذي يهدف إلىٰ جمع شمل أبناء القوم الواحد ولم شعثهم، لذا فقد ظهرت الوطنية وترعرعت مختلفة ومندمجة مع القومية، بحيث يمكن أن تعتبر الثورة الفرنسية ثورة وطنية، أو ثورة قومية، ثم نشأت بعد ذلك القوميات الأخرىٰ، وارتبطت بالحروب الدينية بين الأمم الأوروبية.



---

(١) انظر الفكر التربوي عند ساطع الحصري ص/٤١.

(٢) المصدر نفسه.

المبحث الثاني

الدعوة للقومية في الدولة العثمانية

تمهيد:

لقد كانت الدولة العثمانية - التي حكمت العالم الإسلامي ما يزيد عن أربعة قرون - إسلامية الراية والحكم والتوجه، ترعىٰ شعوبها علىٰ اختلاف أديانهم وأجناسهم، ضمن دائرة الجامعة الإسلامية، وإن كان هناك ثمة أخطاء بلا شك، وأخطاء جسيمة في بعض الأحيان، ولكن الصورة التي صورها الأعداء لم تكن الصورة الحقيقية التي وقعت بالفعل، إنما صورة مشوهة - عن عمد - تُكبَّر فيها الأخطاء مئات المرات، وتعمم فيها كل السيئات حتىٰ تبدو سوادًا كلها حالكة السواد.

وكانت الشعوب الإسلامية مشدودة الولاء والمناصرة للدولة السنيَّة دون التفات لأي نعرات تعارض هذا الولاء، أو تشكك فيه.

وهذا لا يمنع قيام ثورات هنا وهناك معلنة الرفض لبعض التصرفات والأخطاء، فشأن الدولة العثمانية مع هذه الحركات شأن سائر الدول السابقة، والمعاصرة عبر التاريخ الإنساني الطويل، خاصة إذا تذكرنا أنها دولة مترامية الأطراف.

وكان العرب المسلمون يعتبرون الدولة العثمانية حلقة متصلة في منظومة عقد التاريخ والولاء الإسلامي، فلم يكن لديهم أي تصور لتاريخ عربي مستقل عن الإسلام في ماضيه وحاضره[1]، إلىٰ أن بزغت العصبيات القومية هنا وهناك بدعم وتشجيع من أعداء الإسلام.



(١) إن هذا لا يعني أن الدولة كانت سليمة من الأخطاء، وهذا ما أدركه العديد من سلاطين الدولة، فنهضوا للإصلاح الجزئي في المجال العسكري، ومن هؤلاء السلطان سليم الثالث، الذي عمل علىٰ تحديث =

المطلب الأول: أعداء الدولة العثمانية

كان للدولة العثمانية عدوان لدودان، عملا معًا في الكيد والتآمر علىٰ دولة الخلافة بهدف إضعاف كيان الخلافة العثمانية، وتفتيتها ومن ثمَّ اقتسام التركة فيما بينهم، وإليك بيان ذلك:

الأول: الدول الأوروبية الاستعمارية (فرنسا وبريطانيا).

الثاني: اليهود والحركة الصهيونية.

أ - الدول الأوروبية الاستعمارية:

بعد أن دخلت أوروبا عصر النهضة الصناعية ظهرت حاجتها إلىٰ المواد الأولية التي تحتاجها للصناعة، ومن ثمَّ إلىٰ الأسواق الاستهلاكية التي تعد ضرورية لسير عجلة السوق.

وكانت الدولة العثمانية وقتئذ تمثل حجر عثرة أمام الأطماع والهيمنة الغربية، رغم الضعف الذي آلت إليه - لأسباب كثيرة - حتىٰ أطلق عليها سياسيو الغرب اسم «الرجل المريض»[1]، ورغم مرض الرجل، فقد كان موضع خوف وقلق لهم، وذلك خشية أن يصحو من مرضه.

=النظام والعتاد العسكري، وقام بإصلاحات تعليمية، لكن الحروب المستمرة علىٰ جبهات متعددة مع الدولة، وتأليب الأعداء لبعض الولاة العثمانيين، ومقاومة أعداء الإصلاح في الداخل كل ذلك كان يحول دون بلوغ الغاية في الإصلاح الجزئي، علاوة علىٰ ما تحملته الدولة من تكاليف باهظة لإخماد الثورات والتمرد هنا وهناك والذي أثر سلبًا علىٰ أوضاع الخلافة العثمانية الاقتصادية وإنعكاساته علىٰ سير عجلة البناء والتنمية في البلاد.

- انظر الفكر القومي التربوي عند ساطع الحصري ص/ ٢٨، وأيضًا حركة الجامعة الإسلامية، أحمد فهد بركات الشوابكة ص ٩٧ مكتبة المنار ط١/ الزرقاء، الأردن.

(١) السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، أورخان محمد علي، ص/ ٦٣.

لذلك فقد عملت الدولة الأوروبية بكل ما أوتيت من قوة للإجهاز علىٰ «الرجل المريض» بقصد الاستيلاء علىٰ تركته، واستغلال ثرواته، لدعم نهضتها الصناعية، ورغبتها في الهيمنة السياسية، والاستعمارية، بعد تفتيت العالم الإسلامي.

لقد كان دور الدول الأوروبية دعم التوجهات التي تجد فيها وسيلة لتحقيق أغراضها، ولاسيما النصارىٰ العرب، والأقليات غير المسلمة والتي وجدت فيها مناخًا مواتيًا لبذر الفكر القومي وتنميته في وجه النظام الإسلامي الذي كانت تتبناه الخلافة العثمانية.

فالنصارىٰ العرب كان ولاؤهم الديني يغريهم بعدم الارتباط النفسي بالسلطنة وهم ينظرون إلىٰ التاريخ الإسلامي علىٰ أنه خاص بالمسلمين لا صلة لهم به (كما يقول ساطع الحصري وهو من أوائل منظري الفكر القومي الغربي)[1]، وقد عبر عن هذا الهدف (لورانس)[2] في تقريره للمخابرات البريطانية بقوله: إن أهدافنا الرئيسة تفتيت الوحدة الإسلامية بدحر الإمبراطورية العثمانية، وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب فسيبقون في دوامة الفوضىٰ السياسية داخل دويلات صغيرة جامدة متنافرة غير قابلة للتماسك.

---

(١) محاضرات في نشوء القومية العربية ص/ ٢٠، وحركة الجامعة الإسلامية، مصدر سابق ص/ ١٠١.

(٢) مسؤول كبير في جهاز المخابرات البريطانية العاملة في منطقة الشرق الأوسط منذ سنة (١٩١١م) استعدادًا للمستقبل، وكان يتظاهر بحرصه علىٰ نقل الخلافة الإسلامية إلىٰ الشريف حسين، يقول عنه وايزمان (الزعيم الصهيوني): ويقضىٰ علىٰ الواجب وأنا أبحث في تاريخ العلاقات بين العرب واليهود، أن أثنّي هذا الثناء العظيم علىٰ الخدمات التي قدمها (لورانس) للقضية اليهودية، لقد عرفت (لورانس) وقابلته مرات عديدة في مصر، وقد كان يتردد علىٰ منزلي في لندن من غير رسميات ولا كلفة، وكان موقف (لورانس) من الصهيونية موقفًا إيجابيًا لا شك فيه، وكان من الخطأ البالغ أن الكثير كانوا يتصورون أن (لورانس) عدو للصهيونية، بحكم أنه كان صديقًا للعرب (انظر مذكرات وايزمان) ص/ ٤٠ – ٤٥ عن المسيحية د. أحمد شلبي ص/ ١١٤ وأيضًا انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين ٢/ ١٢٠.

وزادت الدول الاستعمارية من وتيرة تآمرها علىٰ الدولة العثمانية زمن خلافة السلطان عبد الحميد الثاني[1] (١٨٧٦-١٩٠٨م) الذي كان يسعىٰ لإحياء فكرة الجامعة الإسلامية، بعد أن أدرك خطورة المخططات الاستعمارية علىٰ دولة الخلافة بإحياء النعرات القومية بين الشعوب الإسلامية بهدف القضاء علىٰ كيان الدولة العثمانية بتفتيت شعوبها، وإضعاف تأثير الإسلام علىٰ الغرب الذي يرون فيه مصدر قلق دائم منذ اندحار الحروب الصليبية علىٰ يد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ب - اليهود والحركة الصهيونية:

إن اتصال اليهود بالدولة العثمانية ظهر مع بداية هجرة اليهود إليها في أواخر القرن الخامس عشر من أسبانيا هربًا من المذابح إثر محاكم التفتيش التي تلت سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس، وبالذات في عهد السلطان مراد الثاني وبايزيد الثاني، حيث طلبوا أن يسمح لهم بالاستقرار في الدولة العثمانية فلبي طلبهم دون قيد أو شرط[2]، (كما سبق تفصيله في فصل العلمانية).

وقد عاش اليهود في الدولة العثمانية - كما يقول المؤرخون - عصر رخاء واستقرار، أطلق عليه العصر الذهبي[3].

ويشير صاحب كتاب (اليهود والدولة العثمانية) إلىٰ أنه عند هجرة اليهود إلىٰ

---

(١) كان السلطان عبد الحميد الثاني - وهو آخر السلاطين العثمانيين قبل الانقلاب الكمالي الذي قاده مصطفىٰ كمال أتاتورك، أحد أبرز زعماء جمعية الاتحاد والترقي - يرىٰ أن الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية مستمرة حتىٰ ولو أخذت شكلًا سريًا، لذلك كان يعمل - بالإسلام - علىٰ توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم في جبهة واحدة كي يتمكن من الصمود أمام الغر[illegible] بتوسع العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب ص/ ٥١ - ٥٢، وأيضًا حركة الجامعة الا[illegible]ية ص/ ٣٠٨.

(٢) اليهود والد[illegible]عثمانية د. أحمد نوري النعيمي ص/ ٢٧.

(٣) المصدر نف[illegible]/ ٣٢، وانظر ص ٥٤.

الدولة العثمانية نقلوا تجارب الشعوب الأوروبية إلىٰ الدولة العثمانية، وكان نتيجة هذه التجارب نشوء بعض الأفكار السياسية والفلسفية، والتي لا تمت بصلة إلىٰ تقاليد هذه الدولة[1]، ومن هذه الأفكار السائدة في الغرب وقتئذ الصراع بين العلم والدين، ومقاومة العلماء والمفكرين لتسلط الكنيسة، وما أفرزه هذا الصراع في نهاية الطريق من فصل الدين عن الدولة (العلمانية)، ثم ظهور الفكر القومي الذي ساد بعد ذلك في أوساط المجتمعات الأوروبية.

ومنذ وقت مبكر كان اليهود يحلمون بالهجرة إلىٰ فلسطين، والاستقرار فيها، ولم يكن سلاطين الدولة العثمانية، وحكومة الباب العالي علىٰ علم بنوايا اليهود، وبعد إلحاح سُمح لهم بدخول فلسطين بصفة حجاج أو سياح، علىٰ أن لا تزيد مدة الإقامة في فلسطين عن / ٣٠ / يومًا، ونتيجة لضغوط الدول الأوروبية مددت الإقامة للحجاج اليهود إلىٰ ثلاثة شهور، بموافقة الحكومة العثمانية عام ١٨٨٧م[2].

إلا أن موضوع هجرة اليهود إلىٰ فلسطين قد تنامىٰ، منذ أن أصدر هرتزل كتابه الشهير (الدولة اليهودية) عام ١٨٩٥م فكان أمام الدبلوماسية الصهيونية خطوتان ضروريتان هما:

١- قيام الحركة الصهيونية بإقناع أثرياء اليهود لإنفاق ثرواتهم خدمة للحركة.

٢- إقناع القوىٰ العظمىٰ بممارسة بعض الضغوط علىٰ الدولة العثمانية، والسلطان عبد الحميد الثاني لتسهيل الهجرة اليهودية إلىٰ فلسطين.

ولما رأىٰ اليهود أن المساعي مع السلطان عبد الحميد الثاني باءت بالفشل فكر

(١) المصدر نفسه ص/ ٤٥.

(٢) انظر الدولة العثمانية المفترىٰ عليها، د. عبد العزيز الشناوي، ٩٧٦، وأيضًا فلسطين تاريخًا وقضية أ. رفيق النتشة وآخرون نقلًا عن بلادنا فلسطين، مصطفىٰ الدباغ القسم الثاني ص/ ٥٠.

اليهود جديًا بإسقاطه وإبعاده عن العرش، ومن ثمَّ تفكيك الدولة العثمانية بفصل الولايات العربية عن حكومة الباب العالي من خلال تنمية المشاعر القومية والوطنية لدىٰ كل من الأتراك والعرب بالتعاون مع يهود الدونمة، والمنتسبين إلىٰ هذه المحافل، والذين تبوّؤا أعلىٰ المناصب الإدارية والعسكرية في الدولة العثمانية(١).

وهكذا فقد ساهم الأوروبيون والمحافل الماسونية (وهي إحدىٰ الأدوات اليهودية) في دعم الجمعيات التي أخذت علىٰ عاتقها تعميق المشاعر القومية لدىٰ كل من الأتراك والعرب علىٰ السواء، والتي التقت حول هدف واحد هو الإجهاز علىٰ (الرجل المريض) ومن ثمَّ تقسيم تركته، وحصول اليهود في خضم توزيع التركة علىٰ وطن قومي لهم في فلسطين.

لذلك يرىٰ الدكتور محمد محمد حسين التقاء مصالح الاستعمار الغربي والصهيونية مع التصور القومي العلماني للقومية العربية(٢).



المطلب الثاني: الجمعيات القومية التركية

رافق اتصال العثمانيين بأوروبا عن طريق الدارسين والمهاجرين إليها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما بعده انتشار الأفكار القومية والوطنية، حيث كانت طافية علىٰ السطح في المجتمعات الأوروبية، والكتابات السياسية والفكرية كامتداد للآثار الناجمة عن الثورة الفرنسية في المجالين السياسي والفكري.

وعلىٰ إثر ذلك تشكلت جمعيات تركية كثيرة تولت نشر الفكرة القومية في أوساط النخبة المدنية والعسكرية التركية ومن أكبر هذه الجمعيات:

---

(١) انظر ب[illegible] مبحث دور الماسونية في تفويض الخلافة العثمانية في فصل الماسونية ص/ ٥٤.

(٢) الإسلا[illegible] حضارة الغربية ص/ ٢٤٢.

أ - **جمعية تركيا الفتاة:**

وهي جمعية قومية تركية تتغنىٰ بأمجاد الأتراك القومية، وكانت ترىٰ أن إنقاذ الدولة لا يكون إلا في نظام برلماني بالمفهوم الأوروبي، ظهرت عام ١٨٦٠م كجمعية سرية تعمل في الخفاء، كان المثل الأعلىٰ لأعضائها يتركز في أوروبا، وأصبح لأعضائها النفوذ والغلبة في تركيا، وهم الذين عزلوا السلطان عبد العزيز عن العرش، وأتوا بالسلطان مراد الخامس بديلًا[١]، وكان معظم أعضائها ليسوا من الأتراك ومن أبرزهم:

* أنور باشا بولندي الأصل.
* جاويد من يهود الدونمة.
* إيمانوايل قره صو يهودي إسباني من سلانيك، والاستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا الماسوني في الدولة العثمانية.
* نسيم رسو، ونسيم مازلياج يهوديان ومن العناصر الفعالة في الحركة.
* نامق باشا (١٨٤٠-١٨٨٨) شاعر تركي معروف، واشتهر بأنه شاعر الحرية والوطن[٢]، ومما يؤكد تأثير اليهود علىٰ هذه الجمعية ما جاء في رسالة (لأوثر) إلىٰ وزير خارجية بريطانيا: إن حركة تركيا الفتاة هي في جوهرها وأساسها حركة يهودية تعارض العناصر الأخرىٰ كالعرب واليونان والبلغار والأرمن[٣].

ب - **جمعية الاتحاد والترقي:**

تأسست في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٦١-١٨٧٦م وصار لها فروع في العواصم الأوروبية؛ في باريس، وفي ولاية سلانيك، وتغلغلت خلايا الاتحاد والترقي في صفوف

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة ص/ ٤٨ - ٤٩

(٢) انظر السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، أورخان محمد علي ص/ ٧٠.

(٣) رسالة (الأوثر) المرسلة إلىٰ وزير خارجية بريطانيا، مجلة آفاق عربية عدد / ٩، ١٩٧٨م ص/ ٦١ - ٦٢.

الجيش العثماني علىٰ وجه الخصوص[1]. أما فيما يتعلق بالفكر السياسي للجمعية، فإنها تؤكد علىٰ المفاهيم القومية الطورانية وهي تسمية تشير إلىٰ وطن الأتراك الأصلي، ونسبته إلىٰ جبل (توران) الواقع في المنطقة الشمالية الشرقية من إيران.

والمتطرفون منهم يقولون: (نحن أتراك فكعبتنا طوران) وهم يتغنون بمدائح جنكيز (أحد قادة المغول) ويعجبون بفتوحات المغول، وينظمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية (نسبة إلىٰ جنكيز خان) ويتخذون من الذئب الأغبر شعارًا لهم.

أما تأثير اليهود علىٰ الطورانية فهو أمر واضح، وفي هذا الصدد يقول: نيازي بركس في كتابه (المعاصرة في تركيا) إن لليهود الأوروبيين، واليهود المحليين دورًا ضخمًا في إرساء تيار القومية الطورانية، فالعلماء اليهود في الغرب أمثال: لوملي، وليون كاهون، وأرمينيوس فامبري تصدروا الكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية، كما أن اليهود المحليين في الدولة العثمانية مثل: قره صو، وموئير كوهين (من مواليد سلانيك عام ١٨٨٣م) وأبراهام غالانتي كان لهم دور كبير في جمعية الاتحاد والترقي، وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية في الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني واستولت علىٰ السلطة تقدم الصهاينة إلىٰ الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطنًا قوميًا لليهود[2] وتحقق لهم ذلك، وقد لعبت جمعية الاتحاد والترقي دورًا كبيرًا في رسم سياسة الدولة العثمانية بعد عام ١٩٠٨م إلىٰ حين إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤م.





(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٧٤ - ٩٠.

(٢) اليهود والدولة العثمانية ص[illegible]١٤، وما بعدها وأيضًا حركة الجامعة الإسلامية ص/ ٣١١.

المطلب الثالث: السياسة الاستعمارية التركية ضد العرب

مارست السلطات العثمانية التي سيطرت عليها جمعية الاتحاد والترقي (القومية) بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني سياسة استعمارية صريحة ضد الجنس العربي وغيره.

فقد تعامل الأتراك مع العرب باحتقار وازدراء ظاهرين، عمق الهوة بين العرب والأتراك، وأكد العداء بين الجنسين العربي والتركي، ورسخ شعور العرب بأن الدولة العثمانية أضحت دولة استعمارية متسلطة تريد أن تنال من كرامة العرب وعزتهم.

ويؤكد عوني عبد الهادي - كان عضوًا في مؤتمر السلم في باريس حيث كان مع الوفد الحجازي - أن الحسَّ القومي قد استيقظ في نفوس العرب كرد فعل للمظاهرات التي قام بها الترك احتفالًا بانقلاب عام ١٩٠٨م - علىٰ السلطان عبد الحميد الثاني - إذ كانوا يشتمون عزت العابد[١]، وأبا الهدىٰ الصيادي[٢] - مستشاري عبد الحميد من العرب - ليس بصفة شخصية بل يشتمون الأمة العربية التي ينتميان إليها[٣].

كما قام حسين جاهد صاحب صحيفة (طنين التركية) بحملة واسعة النطاق ضد العرب، ونوابهم، واصفًا إياهم بأنهم جواسيس لعبد الحميد الثاني[٤].

وفي الكتاب الذي ألفه جلال نوري بك - وهو من رجال الاتحاد والترقي -. بعنوان (تاريخ المستقبل) دعا فيه إلىٰ معاملة بلاد اليمن والحجاز وسوريا والعراق

---

(١) عزت العابد الدمشقي ثاني أمناء سر السلطان عبد الحميد الثاني وأحد مستشاريه البارزين، وعن دوره ومكانته عند السلطان انظر تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طرزي ٢/ ٢١٥ عن حركة الجامعة الإسلامية ص/ ٦٩، ١٩١.

(٢) أبو الهدىٰ الصيادي الحلبي (١٢٦٦ ١٣٢٨هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٩ م) عالم إسلامي، كان مقربًا من السلطان عبد الحميد ومن أكبر ثقاته، وكان يلقب بـ(مستشار الملك) وحامي العثمانيين وسيد العرب، انظر سوريا في العهد العثماني يوسف الحكيم ص/ ٥٨، ومذكرات محمد كرد علي ١/ ٢٤٦، عن حركة الجامعة الإسلامية ص/ ٧٠.

(٣) انظر نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية عن المصدر نفسه ص/ ٢٣٣.

(٤) انظر أوراق خاصة إعداد د. خيرية قاسمية، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث بيروت ص/ ٩ عن اليهود والدولة العثمانية ص/ ٢٣٣.



كمستعمرات تركية وتعميم اللغة التركية وإحلالها محل اللغة العربية.... الخ[١].

ونتيجة لذلك فقد تبنىٰ الاتحاديون سياسة ما سمي بـ(التتريك) وهو إجراء يهدف إلىٰ إلزام كل العرب في الجيش العثماني، والدوائر الرسمية أيضًا باستخدام اللغة التركية لغة رسمية في التخاطب والمعاملات، ومعاقبة من يخالف ذلك، واقتصار التحدث باللغة العربية علىٰ التعليم الديني فحسب[٢].

ويصف محمد كرد علي المعاصر لهذه الأحداث تجاذب المشاعر القومية لدىٰ هؤلاء الزعماء بقوله:

وسار المنورِّون العرب علىٰ مثال الأتراك في التعالي بحب الجنسية والقومية، ولم يكن لهذه الفكرة من أثر قبل سنين قليلة في غير قليل من الرؤوس المفكرة في العرب، وجاهر الاتحاديون بتتريك العناصر منذ قبضوا علىٰ زمام الملك، وانتبه العرب إلىٰ ما يراد بهم، وعلمهم غلاة القومية التركية ما لم يكونوا يختلفون به كثيرًا من التناغي بالقومية[٣].

لقد أعطىٰ القوميون الأتراك الطورانيون للعرب حجة قوية للبحث عن هويتهم (القومية العربية).

يقول الدكتور محمد محمد حسين: أما العروبيون فقد كانوا من ناحيتهم يحتجون بأن الدولة قد أصبحت بعد عزل السلطان عبد الحميد في يد طائفة من غلاة الطورانيين الذين تنطق صحفهم وأعمالهم منذ تولوا الحكم بميولهم الإلحادية، وبمحاربتهم للإسلام والمسلمين، واتخاذهم الوزراء من اليهود[٤].

---

(١) نشوء القومية العربية [illegible] الدين زيم ص ٨٧ نقلاً عن حركة الجامعة الإسلامية ص/ ٣١٣.

(٢) انظر الإسلام والحضـ[illegible] الغربية د. محمد محمد حسين ص/ ٢٣٩، وأيضًا اليهود والدولة العثمانية ص/ ٢٢١ – ٢٣٥، وعـ[illegible]حمن الكواكبي أم القرىٰ، القاهرة ص/ ١٩٠٠، وكذلك العلاقات المصرية التركية، ١٩٥٢ – ١٩٧١م [illegible] محمد كامل الخربوطلي عن المصدر السابق ص/ ١٥.

(٣) الإسلام والحضارة [illegible] محمد كرد علي ١/ ٥١٦.

(٤) فجاويد بك (اليهودي) [illegible] وزيرًا للمالية، وحسين جاهد (اليهودي) مستشارًا له، وطلعت بك الماسوني وزيرًا للداخلية، وبسا[illegible]ندي وزيرًا للنافعة (المواصلات) ونسيم مازلياج وزيرًا للتجارة والزراعة،

المبحث الثالث

الدعوة إلى القومية العربية

المطلب الأول: وقوف الدول الاستعمارية وراء بعث الفكر القومي العربي

يعترف حبيب كوراني - أحد رموز الفكر القومي العربي - بأن نشأة القومية كانت من آثار الحضارة الغربية فيقول: كان الأثر الأول للحضارة الغربية في الحياة العربية بعث القومية العربية، وقيام الحركة الاستقلالية التي تشمل العالم العربي في الوقت الحاضر، وكانت هذه الحركة نتيجة مباشرة للتعليم الغربي[1].

ويتفق قسطنطين رزق مع حبيب كوراني في ذلك حين يقرر أن أول جمعية قومية عربية سرية وجدت سنة ١٨٨٠م وكان أغلب أعضائها من الشباب الذي تعلم في الكلية البروتستانتية السورية في لبنان[2].

ولم يقف دور الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وبريطانيا عند التأثير الثقافي أو الفكري في أوساط العرب، بل تعدىٰ ذلك إلىٰ إجراءات عملية تسعىٰ لدعم المشروع القومي ورعايته ومن ذلك:

=ووصف مراسل جريدة الأهرام في استانبول الوزارة الاتحادية قائلًا: الوزارة الحاضرة عصابة لصوص يؤيدها اليهود والصهيونيون، ويضيف لقد استندت الحكومة الحالية إلىٰ الإسرائيليين، والماسون لتتغلب بهما، وتستعين بأموالهما. الأهرام في ٧ فبراير ١٩١٣ عن حركة الجامعة الإسلامية ص/ ٣١١، وانظر أيضًا السر المصون في شيعة الفرمسون، مجلة المشرق ١٤ أغسطس ١٩١١م ص/ ٦١٨ عن أوراق خاصة إعداد خيرية قاسمية مصدر سابق، وانظر الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين ص/ ٢٢٤.

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص/ ١٢٨.

(٢) وهي الجامعة الأمريكية حاليًا، وكان ذلك اسمها عند إنشائها.



١- تسابق الإنجليز والفرنسيين إلىٰ احتضان الحركة العربية الثائرة علىٰ تركيا منذ ظهورها، والتنافس في السيطرة عليها وتوجيهها، فبينما كان الإنجليز يحمون اللاجئين إلىٰ مصر من زعماء هذه الحركة قبل الحرب العالمية الأولىٰ كان ممثل الحكومة الفرنسية يقوم بحماية زعماء الجمعيات السرية العربية في الشام، ويحول دون بطش الترك بهم، ويساعده في ذلك ويشد أزره ممثل الحكومة الإنجليزية أيضًا[1]، كما لم تتردد فرنسا في احتضان أنشطة الجمعيات السرية ودعمها علىٰ أراضيها، فحين قرر أعضاء الجمعية الوطنية العربية عقد اجتماع موسع لهم في باريس من ١٧-٢٣ حزيران ١٩١٣م وضعت الحكومة الفرنسية قاعة الجمعية الجغرافية تحت تصرفهم ليعقدوا فيها اجتماعهم[2].

٢- إغراء الإنجليز بالشريف حسين أمير مكة بإعلان الثورة العربية علىٰ الأتراك فيما سمي بمراسلات (حسين مكما هون)[3] يمنونه بأن يكون خليفة علىٰ العرب في وعود غامضة وشروط غير صريحة.

وما إن أعلن الشريف حسين الثورة العربية في ٩ شعبان سنة ١٣٤٥هـ ١٠ يونيه ١٩١٦م من مكة المكرمة حتىٰ تدفقت المؤن، والدواب، والذخائر، والذهب، تحملها السفن الإنجليزية إلىٰ مواني الحجاز، أما فهم الشريف حسين للمسألة العربية فكان فهمًا إسلاميًا، فهو واضح في طمعه في الخلافة، من وجهة نظر إسلامية خالصة، وهذا ما جعل الإنجليز ينصرفون عنه إلىٰ ابنه فيصل.

كان الشريف حسين ذي ذكاء ودهاء لكنه كان مسلمًا أولًا وقبل كل شيء، والإنجليز لا يريدون هذه الوطنية الإسلامية، ولكنهم ينشدون وطنية قومية، ذلك ما صرح به (لورانس) الذي لعب دورًا هامًا في التخطيط لهذه الثورة حين وصف ما يدور



---

(١) القضية [illegible] ص/ ٣٥ عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ١٣٠.

(٢) نفس المص[illegible] الفكر القومي التربوي ص/ ٧٤.

(٣) آرثر مكما هون [illegible] البريطاني بمصر، وكان مقربًا من الثورة العربية بقيادة الشريف حسين.

بخلده أثناء تنقله بين معسكرات أبناء الشريف حسين، بحثًا عن الزعيم العربي، الذي كانت مهمته الأولىٰ في هذه المرحلة اكتشافه. فهو يقول: وأخذت طول الطريق أفكر في سوريا... وفي الحج، وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم علىٰ النزعة الدينية، وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني؟ وبمعنىٰ أوضح هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا مثلها الأعلىٰ الديني بمثلها الأعلىٰ الوطني؟ هذا ما كان يجول بخاطري طول الطريق؟[١].

إنها حرب صليبية مستمرة، تستتر حينًا وتظهر أخرىٰ، ويصرح القائد الفرنسي (بيير كيللر) بهذه الدوافع الصليبية حين يقول في كتابه عن (القضية العربية): إن مصالح فرنسا في الشرق الأوسط هي قبل كل شيء مصالح روحية، وتعود هذه العلاقات إلىٰ عهد الصليبيين، حيث وقعت معاهدات لحفظ الأماكن المقدسة، وجُدِّدت هذه المعاهدات علىٰ مر القرون، وتحملت فيها فرنسا مهمة حماية نصارىٰ الشرق[٢]، وبعد نجاح الثورة العربية بانتصارها علىٰ العثمانيين اتفقت فرنسا وبريطانيا علىٰ تقاسم تركة (الرجل المريض) في اتفاقية (سايكس بيكو) المشهورة عام ١٩١٦م، حيث دخلت البلاد العربية في مرحلة استعمار عسكري مباشر لمعظم أقطارها.



المطلب الثاني: تنامي الفكر القومي العربي وظهور الجمعيات السرية

يقول المؤرخ الدكتور محمد محمد حسين: لقد كان العرب والأتراك يلتقون علىٰ الإسلام الذي يوحد بينهم، ويسوي بين أفرادهم، والذي تتلاشىٰ عنده الأحساب والأنساب، فلما صاح الترك مفاخرين بطورانيتهم، استيقظ في العرب فخرهم بمجدهم القديم[٣].

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٩٩ - ١٠١.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٢٠.

(٣) نفس المصدر ٢/ ٩٤.

ففي بلاد الشام كان النصارىٰ الشاميون - كما كانوا يسمون - لا يشاركون غيرهم الإحساس بالولاء القلبي الخالص للحكم الإسلامي القائم الذي تمثله وقتذاك الدولة العثمانية، علاوة علىٰ الفساد الإداري والمظالم المتفشية أواخر الدولة العثمانية[1]، وذلك بعد أن تسلطت جمعية الاتحاد والترقي علىٰ مراكز التأثير في الدولة، وهو فساد كان يشكوا منه المسلمون والمسيحيون والعرب والترك علىٰ السواء، فلا غرابة عندئذ من شيوع التوجهات القومية، بين النصارىٰ العرب، ومن ثمَّ انتقاله إلىٰ غيرهم.

وهكذا أطلت القومية برأسها بين المسلمين، ونجح المخطط الصليبي الصهيوني في تفتيت الأمة المسلمة، ولم يكن ظهور العصبية القومية بين العرب فحسب، بل امتد إلىٰ شعوب إسلامية أخرىٰ في إندونيسيا وفارس والهند وغيرها، وكان من أبرز دعاة القومية بين نصارىٰ الشام في هذه الفترة:

* ناصيف اليازجي ١٨٠٠ - ١٨٧١م

* فرنسيس مراش ١٨٣٦ - ١٨٧٣م

* إبراهيم اليازجي ١٨٤٧ - ١٩٠٦م

* فرح أنطون ١٨٧٤ - ١٩٢٢م

* نجيب عازوري عضو مجلس البرلمان التركي العثماني ومساعد حاكم القدس بين عامي ١٨٩٨ - ١٩٠٤م، وترأس في القاهرة محفلًا ماسونيًا عام ١٩٢٠م.

ولا ننس دور المدارس الكنسية في الشام في توجيه اهتمام الدارسين فيها إلىٰ

---

(١) وإن كان بعض المؤرخين والكتاب القوميين العرب المعاصرين ينسبون ما وقع في أواخر الدولة العثمانية من ظلم وتعصب قومي إلىٰ الخلافة الإسلامية، إما جهلًا بواقع التاريخ وقتئذ، وإما عن عمد [illegible] أغراضهم التي تهدف إلىٰ تشويه صورة الإسلام، وإبراز الدعوات القومية والوطنية علىٰ حساب [illegible] إلىٰ النظام الإسلامي.

تاريخ الجاهلية قبل (الإسلام)، ويعتبر ساطع الحصري هذه الأفكار البذور الأولى عند المسيحيين قبل المسلمين[1].

ويذكر المؤرخون أن أول شيوع الفكر الوطني كان في مصر، وأما في بلاد الشام فكان التوجه للقومية.



المطلب الثالث: أهم الجمعيات القومية العربية ومؤسسوها

١- الجمعية السورية أسسها نصارى منهم بطرس البستاني وناصيف اليازجي سنة ١٨٤٧م في دمشق.

٢- الجمعية السورية في بيروت أسسها نصارى منهم: سليم البستاني، ومنيف خوري سنة ١٨٦٨م.

٣- الجمعية العربية السورية ظهرت سنة ١٨٧٥م ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا.

٤- جمعية رابطة الوطن العربي أسسها نجيب عازوري سنة ١٩٠٤م بباريس.

٥- الجمعية القحطانية ظهرت سنة ١٩٠٩م في باريس وهي جمعية سرية من مؤسسيها خليل حمادة المصري.

٦- الجمعية العربية الفتاة أسسها في باريس طلاب عرب منهم محمد البعلبكي سنة ١٩١١م.

٧- الكتلة النيابية العربية ظهرت سنة ١٩١١م.

٨- حزب اللامركزية سنة ١٩١٢م.

٩- المؤتمر العربي في باريس أسسه بعض الطلاب العرب سنة ١٩١٢م.

١٠- حزب العهد ١٩١٢م وهو سري أنشأه ضباط عرب في الجيش العثماني.

---

(١) محاضرات في نشوء القومية. ساطع الحصري ص/ ١٢٤.

١١- جمعية العَلَم الأخضر سنة ١٩١٣م ومن مؤسسيها د. فائق شاكر.

١٢- جمعية العلم، وقد ظهرت سنة ١٩١٤م في الموصل.

هذا وقد ظلت الدعوة إلىٰ القومية العربية في هذه الفترة محصورة في نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها[١]، ثم تطورت الحركات القومية بعد ذلك، تحت شعار الدعوة إلىٰ رابطة قومية تجمع العرب - الجامعة القومية - وبارك الغرب هذه الرابطة وشجعها، في مقابل دعاة حركة الجامعة الإسلامية.



المطلب الرابع: نشأة الأحزاب والحركات القومية

توجه مفكرو القومية العربية إلىٰ تأسيس أحزاب أو حركات قومية، تهدف الوصول إلىٰ السلطة في بلدانها بجذب الشباب العربي بجرأة شعاراتها، وجدة طرحها، ومن هذه الأحزاب والحركات:

أولاً: حزب البعث العربي:

أسسه ميشيل عفلق، وصلاح الدين البيطار عام ١٩٤٧م، وفي عام ١٩٤٩ أنضم إليه الحزب الاشتراكي الذي أسسه أكرم حوراني وأصبح اسمه الجديد: حزب البعث العربي الاشتراكي، وينص دستور الحزب الذي أعلن في عام ١٩٤٧علىٰ أن البعث العربي حركة قومية شعبية انقلابية تناضل في سبيل الوحدة العربية، والحرية والاشتراكية[٢].

(١) انظر الموسوعة الميسرة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي ١/ ٤٤٩ وأيضًا حركة الجامعة الإسلامية ص/ ١٠٨.

(٢) نضال البعث ١/ ١٧٢ وص ١٨١.

ورفع شعار: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، ويرىٰ عفلق في الرسالة أن يتطلع العرب إلىٰ بعث أمتهم من خلال واقع متحضر[1]، ويرىٰ أن العرب لا يريدون أن تكون قوميتهم دينية، لأن الدين له مجال آخر، وليس هو الرابط، بل هو علىٰ العكس يفرق بين القوم الواحد[2].

ثانيًا: الاتحاد الاشتراكي:

عند قيام ثورة البعث في سوريا عام ١٩٦٣م نشأت حركة معارضة مكونة من مجموعات حزبية مختلفة هي: الوحدويون الاشتراكيون؛ (وهم فصيل منشق عن حزب البعث)، والجبهة العربية المتحدة، والاتحاد الاشتراكي، وبعد فترة وجيزة اتحدت هذه المجموعات المتنوعة تحت اسم «الاتحاد الاشتراكي»[3].

ثالثًا: حركة القوميين العرب:

ففي عام ١٩٥٦م، أعلن عن تأسيس حركة القوميين العرب برئاسة جورج حبش ووديع حداد (من خريجي الجامعة الأمريكية بيروت)، وكان للقوميين نشاط بارز في تلك الفترة في الجامعة الأمريكية، ولاسيما قسطنطين زريق، وميشيل عفلق، وصلاح البيطار من خلال الاتصال بطلاب الجامعة لجذبهم إلىٰ الفكر القومي البعثي[4].

وكان الرئيس المصري جمال عبد الناصر أحد أبرز القادة السياسيين الذي قام بالثورة علىٰ الملكية بمصر عام ١٩٥٢م وقد تبنىٰ القومية في برنامجه السياسي إضافة إلىٰ الاشتراكية، وتأسست باسمه أحزاب - سميت بالناصرية - في كافة أقطار العالم العربي، وقد لعب دورًا بارزًا في ترسيخ المشاعر القومية ولاسيما لدىٰ عامة الشعوب العربية.



(١) تحليل مضمون الفكر القومي العربي ص/ ١١٣.

(٢) ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة: إلياس فرح ص/ ٣٣٩ سنة ١٩٨٠.

(٣) الحركات القومية الحديثة ص/ ١٧٣، ١٧٥.

(٤) متح صلح ٢٥/ ١١/ ١٩٨٩م الشرق الأوسط ٤٠١٥ لندن انظر الفكر القومي التربوي ص/ ٨٢.

المطلب الخامس: من مخاطر الفكر القومي

يمكن إجمال مخاطر الفكر القومي في الأمور التالية:

١- إضفاء الصفة التاريخية علىٰ الإسلام، إذ اعتبر مرحلة ماضية من تاريخ الأمة العربية، فالقومية العربية هي الفكرة الكلية الشاملة، والإسلام جزء منها، أو هو تجربة أفرزته العبقرية العربية - كما يزعم بعض القوميين العرب -.

٢- محاولة تضخيم تاريخ الجاهلية وتاريخ العرب قبل البعثة النبوية، والاعتداد به، وجعله في الغالب مصدر افتخار واعتزاز، وتصوير العرب عبر تاريخهم الطويل علىٰ أنهم أصحاب حضارة ممتدة، مع تحجيم دور الإسلام من خلال التركيز علىٰ الحركات الشعوبية كالقرامطة، و الزنج، والحشاشين، وإخوان الصفا، إلىٰ جانب الاهتمام بنقاط الضعف في التاريخ الإسلامي.

٣- إعطاء القومية - بوصفها انتماء - مضمونًا عقائديًا، بحيث تصبح القومية عقيدة، أو دينًا، يحل محل العقائد والأديان التي من جملتها الإسلام، بل هو المقصود من دونها حتىٰ قال شاعرهم:

لا تسل عن مذهبي　　　أنا بعثي اشتراكي عربي

وهكذا فقد قامت الدولة القومية المعاصرة علىٰ أساس الفصل بين الدين وحياة الشعوب العربية، بعد ثلاثة عشر قرنًا من ولاء الأمة المطلق للدين، وتحكيم الشريعة في جوانب حياتها المختلفة، الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية ... الخ.

ولكن لم تصمد الفكرة القومية المجردة فترة طويلة، حيث بدأت تنكفئ أمام الغزو الفكري الماركسي، والأحزاب الشيوعية، فأصبحت العروبة مطية للفكر اليساري، والحركات الشيوعية في العالم العربي. ثم بعد سقوط المنظومة الاشتراكية (الاتحاد السوفيتي) عمدت الدولة القومية إلىٰ رفع شعارات الوطنية والديمقراطية ونحو ذلك.

المبحث الرابع

عناصر القومية وإشكالياتها

المطلب الأول: عناصر القومية

لم تكن عند مفكري القومية العربية في البداية رؤية واضحة وتأصيل محدد لعناصرها التي تقوم عليها، ثم عكف دهاقنة القومية على تحديد هذه العناصر من خلال اجتهاداتهم ودراساتهم للنماذج القومية لدى الأمم الأخرى:

فساطع الحصري (١٨٨٠ - ١٩٦٨م) مثلًا يرى أن العناصر الأساسية لتكوين القومية هي: وحدة اللغة ووحدة التاريخ، وما ينتج عن ذلك، والمشاركة في المشاعر والمنازع، وفي الآلام والآمال وأن جميع الناطقين بالضاد، أبناء الأمة العربية، يكونون أمة واحدة بهذا الاعتبار[١].

أما قسطنطين زريق الذي وضع كتابًا سماه (الوعي القومي) عام ١٩٣٨م فقد حدد عناصر القومية بأنها تتألف من اللغة والتقاليد والمصالح المادية المشتركة[٢].

أما عبد الله العلايلي صاحب كتاب (دستور العرب القومي) فيرى أن العناصر المكونة للقومية هي: اللغة والعادات والمصالح المشتركة والمحيط الجغرافي (أو البيئة) والسلالة، والتاريخ[٣].

---

(١) آراء في اللغة والأدب، ساطع الحصري ص ٢٣٤ ط١ / بيروت دار العلم للملايين. وانظر أيضًا الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام، منير محمد نجيب ص/ ١٧.

(٢) تحليل مضمون الفكر القومي العربي، السيد يسن ط ٢ ١٩٨٢ بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.

(٣) الإسلام والحضارة الغربية ص/ ٢٤١.

ولا يختلف دعاة القومية هؤلاء في استبعاد الدين كرابط إنساني[1]. ولا يتعارض ذلك مع مواقف مجاملة لبعضهم كموقف عبد الرحمن عزام (أول أمين عام للجامعة العربية) الذي أعلن أنه لا يفرق بين مثل الإسلام والقيم التي تنشدها القومية العربية[2].

ومما يلاحظ علىٰ مفكري القومية العربية تأثرهم الشديد بالفكر الغربي الوافد وموقفه من الدين، ورفضه له، نتيجة للصراع المرير الذي دارت رحاه بين الكنيسة ورجال الدين من جهة وبين المفكرين والعلماء والملوك وبعد ذلك الشعوب من جهة أخرىٰ - كما سبق بيانه -، ومن خلال استعراض آراء بعض دعاة الفكر القومي فإنه يمكن إجمال عناصر القومية عندهم علىٰ اختلاف بينهم في العناصر التالية: اللغة، التاريخ، الآمال، والآلام المشتركة، التقاليد، المصالح المادية، المحيط الجغرافي، والسلالة.



المطلب الثاني: إشكالات هامة حول عناصر القومية

مراعاة للاختصار الذي يتناسب مع طبيعة هذه الدراسة فإنني سأتناول ثلاثة عناصر منها وهي أهمها: اللغة، والتاريخ، والأرض. دون غيرها.

١- اللغة:

يرىٰ كثير من دعاة القومية وعلىٰ رأسهم ساطع الحصري أن اللغة هي الأساس الأعظم في تكوين البناء الثقافي القومي، وهو رأي قوميي الشام[3]. وهذا يدفع إلىٰ التساؤل التالي: هل اللغة التي يعتبرونها عنصرًا أصيلًا في البناء القومي - كما يزعمون - بمجرد كونها أصواتًا مجموعة، أو حروفًا مكتوبة، أم بما تحمله من أفكار ومفاهيم ومعتقدات؟.

(١) المصدر السابق وأيضًا ما هي القومية، ساطع الحصري ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) تحليل مضمون الفكر القومي العربي ص/ ٩٩.

(٣) أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة الميداني ص/ ٣٣٣.

لا ريب أن واقع البشرية وماضيها يشهد أن للغة دورها في بناء الأمة لا بذاتها وإنما باعتبارها أداة وقالبًا ووسيلة لمضمون فكري، واعتقادي، وخلقي يجمع الناس، والدليل علىٰ هذا أن بعض الشعوب قد تنسىٰ لغتها الأصلية كما حدث لشعب الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي (عام ١٨٣٠م) ولم ينسلخوا عن أمتهم، كما حدث أيضًا لليونانيين، والمصريين، والأرمن السوريين، حين اندمجوا مع المجتمعات التي يعيشون فيها[١]، وكذلك فإن المهاجرين والمهجَّرين من البلاد العربية إلىٰ بقاع متباعدة قد تحولت لغتهم إلىٰ لسان آخر، فهل هم منسلخون عن عروبتهم بفعل ظروف صرفتهم عنها؟.

ويقال كذلك هناك كثير ممن يتكلم العربية من أمم وشعوب أخرىٰ، في فارس، وتركيا، وإندونيسيا، وغيرها، فهل يدخلون ضمن التصنيف القومي العربي؟ وشبيه بهذا أن يقال: اللغة الواحدة بحكم ظروف الاحتلال وتغلب بعض الأمم علىٰ أكثر شعوب العالم ثقافيًا - تشيع اللغة بين أمم متعددة ومتباعدة - كما هو الحال بين الإنجليز والأمريكان، فهل جمعتهم في كيان قومي واحد؟!

وكذلك اختلاف اللغة لم يمنع قيام بلجيكة أو الهند أو سويسرا التي يتكلم سكانها (بثلاث) لغات أصلية؛ وسكان الهند يتكلمون بأكثر من ثلاثمائة لغة يختلف بعضها عن الآخر اختلافًا يمنع التفاهم بين شعوب الهند إلا بوجود مترجم، أو تعلم لغة، ومع ذلك يشكلون كيانًا واحدًا[٢].

وها هي اللغة الإنجليزية قد غدت لغة معظم مثقفي المجتمعات البشرية فهل تجمعهم في قومية واحدة؟. علىٰ أن هذا لا يعني بحال التقليل من أهمية اللغة لأنها الوسيلة الفذة لتواصل العقول والمشاعر والأفكار[٣]، ولكن لا تبلغ أن تكون الأس الأعظم في تكوين الأمم.

---

(١) الأمة. محمد المبارك ط ٢ ص/ ٥٨ انظر الفكر القومي التربوي ص/ ١٣٦.

(٢) المخططات الاستعمارية. محمد محمود الصواف ص ٢٥ المصدر السابق.

(٣) مراجعات في الفكر القومي، محمد جابر الأنصاري ص/ ١٢٩.



٢ - التاريخ:

يرىٰ كثير من دعاة الفكر القومي أن التاريخ من العناصر المهمة في البناء القومي العربي، وعند تطبيقهم لهذا المبدأ نراهم يقصدون التاريخ العربي قبل الإسلام.

والحقيقة أن للتاريخ أثره، وتاريخ الإسلام هو تاريخ العرب، وتاريخ العرب هو تاريخ الإسلام، (ولو حذفنا منه الإسلام وما نشأ عنه لم يبق للعرب شيء، فالعرب ولد مجدهم وتاريخهم يوم ولد محمد ﷺ)[١].

والتاريخ يؤخذ منه المحاسن والمفاخر، ولا يعتبر به لمجرد الانتساب إلىٰ أمة واحدة، وأما المساوئ فتؤخذ منها العبر والدروس النافعات، أما التعصب لرجال التاريخ من الظلمة أو الفجرة أو الطغاة أو الضُّلال فهذا يشبه افتخار السارق القاتل عند شيخوخته بأيام بطشه وظلمه.

إن التاريخ المنسي البعيد ليس له من أثر في الشعوب المسلمة كتاريخ الجاهلية العربية إلا للاعتبار، ذلك أن الإسلام جاء لتغيير أكثر ما فيها مع الإبقاء علىٰ الفضائل والمكارم.

ونقول: أيُّ اعتزاز وافتخار بما نقل عن تاريخ العرب قبل الإسلام بأنهم كانوا يعبدون الحجارة، ويطوفون بالبيت عريانيين، أو شيوع نكاح السفاح عند الناس في الجاهلية؟!!.

بينما يفتخر الرسول ﷺ بحلف الفضول الذي تعاهد عليه الناس في الجاهلية فقال ﷺ: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمْرُ النَّعم، ولو أدعىٰ به في الإسلام لأجبت**[٢]» ثم أليس لعقيدة من يقرأ التاريخ دور في تفسيره

---

(١) الشيخ علي الطنطاوي، الشرق الأوسط ٣٦٠٧ ص/ ٨.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٣٤ وفي الخبر أن قبائل من قريش تداعت إلىٰ حلف فتعاقدوا وتعاهدوا علىٰ أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا علىٰ من ظلمه حتىٰ ترد عليه مظلمته فسمت ذلك الحلف، حلف الفضول / نفس المصدر.



وتحديد الموقف من أحداثه؟.

يوضح هذه الحقيقة الأستاذ محمد المبارك بقوله: هل ينظر الهنود المسلمون منهم والهندوس إلىٰ الفتح العربي الإسلامي للهند نظرة واحدة، ويقيسون بمقياس واحد؟ ألا يرىٰ المسلمون فيه تحريرًا لهم من الخرافة والوثنية، وهداية لعقولهم، وتوجيهًا لها نحو الخير والرقي، ويرىٰ فيه الهنادك تحطيمًا لديانتهم القومية، وحضارتهم الخاصة؟[1].

إذًا ليس المهم في موضوع التاريخ أحداثه الخاصة فقط، وإنما المهم هو المقاييس التي ينظر بها إلىٰ تلك الوقائع التاريخية.

٣- الأرض:

لا أحد ينكر حب الإنسان لأرضه التي نشأ عليها، وترعرع في أحضانها، ولكن ما قيمة هذه الأرض التي لا يجد فيها الإنسان كرامته أو حريته وأمانه؟.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾[2].

وفي ذلك يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المعروف عند أولي الألباب أن الأرض ملك للإنسان، وليس الإنسان مُلك الأرض، وأن المرء قد يخسر هذه الأرض التي يعيش عليها في ظروف حرب، وساعات هزيمة، ولكنه يستعيدها ليحيا فوقها كما تشاء له مثله العليا، لا كما تشاء له الصخور والرمال، أو المياه والأنهار[3]، ثم يضيف: قالوا: الولاء للتراب الوطني قلنا: نحن نحب أوطاننا ولكن ولاءنا لرب الأرض والسماء[4].

(١) الأمة، محمد المبارك ص/ ٦٨.

(٢) سورة النساء آية/ ٩٧.

(٣) حقيقة القومية، ص/ ١٢٠.

(٤) هموم داعية، ص/ ٩٧.



ثم بعد هذا كله: هل الأرض وحدت بين سكانها في قومية واحدة؟ وهل بمجرد سكن العرب في بريطانيا أو البرازيل أو فرنسا تصبح تلك الأرض عربية؟ وهل إقامة الأكراد على أرض سورية، أو تركية، أو عراقية تجعلهم عربًا أو تركًا؟ أم الذي يوحد بين جميع الأجناس هو المعتقد أولًا؟.

إننا نرى الكردي المسلم، والألباني المسلم، والبخاري المسلم لا يشعر بحقيقة الغربة حين يسافر إلى مجتمعات إسلامية، إلا إذا كانوا جميعًا يشهدون غربة عنصرية قومية مصطنعة، أوجدتها مفاهيم جاهلية أشاعت البغضاء بينهم، كإقامة الأكراد بين قوميين عرب، أو قوميين أتراك، أو إقامة عرب بين قوميين فرس، أو قوميات أخرى وهكذا.





المبحث الخامس

المواقف من القومية العربية

لقد كانت القومية منذ نشأتها ولا تزال موضع جدل كبير، ناتج عما أحاطها في أذهان العرب والمسلمين من لبس يرجع إلىٰ أن العرب هم مادة الإسلام، وأصله الأول، وأن لغتهم هي لغة الإسلام التي نزل بها كتابه، والتي تؤدىٰ بها كل شعائره.

وقد برزت في معاجم الأدب والفكر السياسي كلمات «العروبة»، و «الجامعة العربية»، و «القومية العربية» علىٰ التعاقب، ثم اختلطت مفاهيمها، وتميعت مدلولاتها في بعض الأحيان، وغلب علىٰ العامة استعمالها في معنىٰ واحد، مع تفضيل استعمال بعضها علىٰ بعض، وكان المقصود بها في كل الأحوال، هو الصفات الجامعة لذلك الجنس من الناس، المسمىٰ عند المعاصرين «بالعرب» علىٰ خلاف بين الناس في تصور مدلول هذه الكلمة، وفي مقومات ذلك الجنس.

ويمكن إجمال المواقف من القومية من خلال عرض التوجهات التالية:

١- الإسلاميون: فهم يرون أن الإسلام لا يمنع أن ينتسب الإنسان إلىٰ قومه علىٰ سبيل التواصل والتعاون علىٰ الخير، وهم أولىٰ الناس ببره واهتمامه، وقد أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يبدأ دعوته بالأقربين فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾(١).

وإن الإسلام قد أنشأ للبشرية تصورًا جديدًا للعلاقات بين الناس يقوم علىٰ العدل والإحسان ورفض التعصب والعدوان مهما كان سببه.

لكن هذا الانتساب وأولوية التواصل مع القوم لا ينبغي أن يعارض رابطة الأخوة

---

(١) سورة الشعراء: آية/ ٢١٤.

الإسلامية العامة التي جعلها الإسلام بين المسلمين جميعًا ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[1]، علىٰ اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأوطانهم، فلا يصل التعصب للقوم إلىٰ أن يقدم الشخص ولاءه ومحبته لبني قومه - لأنهم من قومه - علىٰ أبناء قوميات أخرىٰ من المسلمين من غير اعتبار للصلاح والتقوىٰ والله تعالىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[2]، ويرون أن مجد العرب وحضارتهم وعزهم لم يكن إلا بالإسلام، الذي أخرجهم من الظلمات إلىٰ النور.

ولم يكن لاختلاف الأجناس والأوطان تأثير في علاقات المجتمع الإسلامي الأول، بعد أن وضع القرآن الكريم أصول هذه العلاقة التي تقوم علىٰ رابطة الإخوة الإسلامية، وما تستلزمه هذه العلاقة من واجب الحب والنصرة والولاء.

ففي مجتمع المدينة كان بلال الحبشي، وصهيب الرومي وسلمان الفارسي مع السادة من قريش وكان رسول الله ﷺ يقول: «**سلمان منا آل البيت**»[3]، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيُدنا وأعتق سيدَنا»[4]، يعني بلالاً الحبشي رضي الله عنه، وهي قمة لم تصل إليها البشرية في تاريخها إلا في أمة العقيدة.

٢- القوميون المعتدلون: وهم فئة من مفكري ومروجي القومية العربية يعلنون اعتزازهم بالإسلام علىٰ أنه أحد مقومات نهضة العرب، ومكون من مكونات القومية العربية، وأن الحضارة العربية الإسلامية قد شارك في بنائها جميع العرب من مسلمين ونصارىٰ ويهود وغيرهم، ومن أمثلة هذا الفريق ميشيل عفلق - مؤسس حزب البعث

---

(١) سورة الحجرات: آية/ ١٠

(٢) سورة الحجرات: آية/ ١٣

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٩٨، والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٦١ من طريق كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، مناقب بلال بن رباح باب / ٢٣ من رواية جابر نب عبد الله رضي الله عنه.

العربي في العقد الرابع من القرن الماضي، ولاسيما في كتاباته ومواقفه المتأخرة.

٣- القوميون الجدد: وهم الذين يستمدون تصورهم من غلاة القوميين عند مفكري الغرب في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد تأثروا بأجواء الثورة الفرنسية والدعوات الليبرالية والعلمانية.

وهؤلاء يجردون القومية من كل صلة بالدين، فلا يقيمون وزنًا للتاريخ العربي الإسلامي، ولا يرتبطون بالسمات التاريخية لهذه الشخصية.

ويمثل هذا الفريق نصارىٰ الشام أمثال: أحمد فارس شدياق (١٨٠١-١٨٨٧م) وبطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣م)، وناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١م) وابنه إبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦م) و جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤م) وغيرهم.

ويتفق هؤلاء القوميون علىٰ تمجيد الجنس العربي، وإقامة دولة علمانية موحدة علىٰ أساس من رابطة الدم والقربىٰ، واللغة، والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين باعتبار أن الدين لا يصلح رابطة إنسانية.

وقد أصبح هذا الفكر تيارًا شعبيًا عامًا ولاسيما عندما تبناه حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا والعراق، والرئيس الراحل جمال عبد الناصر في العقدين السادس والسابع من القرن الماضي في مصر، حيث سخر لهذا الفكر أجهزة الإعلام، وسائر إمكانات الدولة، ولاسيما مناهج التعليم في مراحله المختلفة.

ورغم ذلك يمكن القول: إن الطروحات القومية بكل أطيافها تعيش اليوم فترة انحسار أو جمود علىٰ الأقل - بل هناك تقاطع وتقارب مع الإسلاميين في بعض المواقف والرؤىٰ، ولعل في تأسيس المؤتمر القومي الإسلامي والذي عقد أول جلساته في بيروت عام (١٤١٥هـ- ١٩٩٤م) دليل علىٰ اعتدال الرؤية عند القوميين العرب، وإقرارهم بأهمية الدين في حياة الأمة كمرجعية لا ينبغي إغفالها. والله أعلم.



الخلاصة

القومية تيار فكري ظهر في أوروبا أواخر القرن السادس عشر، أما قيام الدولة الأوروبية علىٰ أساس قومي فكان بعد الثورة الفرنسية، كرد فعل علىٰ تسلط الكنيسة وطغيانها.

والقومية نسبة إلىٰ القوم، وهو شعور بالانتماء والولاء إلىٰ مجموعة بشرية متحدة بالأصل العرقي والروابط التاريخية واللغة الواحدة. واستهدفت الدعوات القومية الدولة العثمانية التي حكمت معظم العالم الإسلامي لما يزيد عن أربعة قرون، وكان هدف الدول الاستعمارية من تصدير التوجه القومي إلىٰ الدولة العثمانية هو تفتت كيان المسلمين، وقطع العلائق بينهم.

وقد تولىٰ تنفيذ هذا المخطط جمعيات تركية وعربية، لعبت دورًا خطيرًا في تعميق المشاعر القومية وتكريس حالة الانقسام السياسي والاجتماعي بين المسلمين بأساليب مدروسة خطط لها الاستعمار والماسونية واليهودية بعناية فائقة.

ففي تركيا تولت تنفيذ هذا المخطط جمعيتا تركيا الفتاة، والاتحاد والترقي بتعميق المشاعر القومية لدىٰ الأتراك، واستعداء القوميات الأخرىٰ، لاسيما العرب، من خلال ممارسة سياسة استعمارية تركية باسم الدولة العثمانية.

أما بالنسبة للعرب فقد نشطت جمعيات كثيرة منها: العربية الفتاة، وحزب اللامركزي، والمؤتمر العربي بباريس وغيرها، وقد نشأت بعد ذلك الأحزاب القومية

العربية التي نادت بإبعاد الدين كرابط إنساني مثل: حزب البعث العربي الاشتراكي، والاتحاد الاشتراكي، والتيار الناصري وغيره.

وكان للدعوات القومية في العالم الإسلامي آثار خطيرة منها: نشر العلمانية، وهدم الخلافة وإحياء النعرات الجاهلية وتكريس الانقسام بين الشعوب الإسلامية.

وقد اختلف دعاة القومية في تحديد عناصرها التي تقوم عليها كاللغة والتاريخ والمشاعر المشتركة لكن إشكالات هامة حول هذه العناصر أضعفت مصداقيتها أمام منهج النقد العلمي والواقع التاريخي.

ومن هنا فقد تباينت مواقف الإسلاميين والقوميين من القومية وذلك تبعًا لاختلافهم حول علاقة الإسلام بالعروبة، وتأثير المفهوم الغربي علىٰ القومية في مقابل نظرة الإسلام للعلاقة بين الإنسان وقومه ومحددات هذه العلاقة.





الفصل الخامس

الوطنية

يشتمل الفصل على:

تمهيد.

المبحث الأول:

ظهور الدعوة الوطنية وتكريس الانقسام.

المبحث الثاني:

أهداف ونتائج الدعوة الوطنية.

المبحث الثالث:

الموقف من الوطنية.

الخلاصة.

مراجع مختارة.

تمهيد

الوطنية نسبة إلىٰ الوطن، وهو المنزل يقيم فيه، فهو موطن الإنسان ومحله، والجمع أوطان[1]، كما أطلق علىٰ الأرض التي يعيش عليها مجموعة من البشر، ويقال: استوطن الأرض أي اتخذها وطنًا[2].

أما في الاصطلاح فالوطنية شعور أبناء الوطن الواحد بالولاء للوطن، والتعصب له أيًا كانت الأصول العرقية التي ينتمون إليها، أو أجناسهم التي انحدروا منها.

وإذا كانت الدولة القومية قد نشأت بعد نجاح الثورة الفرنسية نهاية القرن الثامن عشر - كما سبق - فإن الدولة الوطنية كان قيامها مرتبطًا بالدولة الحديثة.



(١) معجم الصحاح للجوهري مادة وطن.

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة وطن.

المبحث الأول

ظهور الدعوة الوطنية وتكريس الانقسام

المطلب الأول: ظهور الدعوات الوطنية

ظهرت الدعوة إلىٰ الوطنية في العالم الإسلامي كصدىً للاتجاه العالمي نحو فكرة القومية والوطنية في القرن التاسع عشر، وكان دعاة الوطنية في بلاد المسلمين متأثرين تأثرًا واضحًا بالتفكير الأوروبي كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم.

وكان ظهور الوطنية كمصطلح سياسي في العالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الأولىٰ ولاسيما بعد إلغاء الخلافة العثمانية، والتي قامت أصلًا علىٰ أساس رابطة الجامعة الإسلامية.

وقد قدم مروجو الفكر الوطني الحديث الوطنية علىٰ أنها بديل لرابطة التضامن بين أبناء الملة والدين، وهو ما كان يسعىٰ إليه أعداء الإسلام في الداخل والخارج.

وكان أول ظهور للدعوة إلىٰ الوطنية في مصر عندما تفاخر المصريون بأمجاد مصر، وبالفراعنة، وما قبل الفراعنة، وكان ذلك بتأثير من الفكر الذي جاء به الطلاب المبتعثون إلىٰ فرنسا حيث كان سائدًا في أوروبا وقتئذ.

وكان دعاة الوطنية يعلنون رفضهم الصريح ليس للرابطة الإسلامية فحسب، بل للرابطة القومية أيضًا.

فلطفي السيد كان يرىٰ في الجامعة العربية (القومية) بعد الحرب العالمية الأولىٰ شبهًا برأيه في الجامعة الإسلامية قبل الحرب، ويقول: إن السعي لتأليف تحالف من

هذا النوع وهم من الأوهام، ويرىٰ أن الداعين إليه يضيعون الوقت في خيال عقيم، وأحلام بعيدة التحقيق، ويذهب إلىٰ أن مهمة كل بلد من البلاد العربية تنحصر في تقوية نفسه، والنهضة بأبنائه في حدود العصبيات الإقليمية[1].

وأما طه حسين ففي مرحلة من مراحل حياته دعا إلىٰ القومية المصرية علىٰ نحو ما دعا إليه لطفي السيد[2]، وأيضًا حلمي بركات الماروني الذي كان يدعو إلىٰ الأمة السورية، والأمة اللبنانية[3].

ومن ثمَّ بدأنا نسمع هنا وهناك صيحات تدعو إلىٰ أن مصر للمصريين، وسوريا للسوريين، وليبيا لليبيين وهكذا.



المطلب الثاني: دعوات وطنية تكرس الانقسام والتشرذم

حاول أصحاب هذه الدعوة من خلال خطبهم وكتاباتهم ترويج ولاء سكان الوطن الواحد لأرض وطنهم ذي الحدود المعينة وشحنهم بالتعصب للوطن، انتماء ودفاعًا عنه بالنفس والمال مهما اختلفت عقائدهم ولغاتهم وأعراقهم وقومياتهم، ورفض أي رابطة أخرىٰ قومية كانت أم دينية.

وقد كانت هذه الدعوات حافزًا للتوجه إلىٰ آثار الحضارات القديمة لكل دولة، لنبشها وترميمها وحفظها في متاحفها، تقيم لها المعاهد والمراكز البحثية لدراستها وتحليلها، وإبرازها لتكون جزءًا من ثقافة المواطنين، وعاملًا أساسيًا في تكوين الشخصية الوطنية ثقافةً وولاءً، وتميزًا عن الشعوب الأخرىٰ.

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ١٤٥.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ص/ ٢٤١.

(٣) انظر الفكر القومي التربوي عند ساطع الحصري ص/ ٧٩.

لذلك نشطت حركة الاهتمام بالآثار الفرعونية في مصر، والفينقية في سوريا، والكلدانية والآشورية في العراق والرومانية في الأردن ونحو ذلك.

ففي مصر مثلًا ظهرت موجة فرعونية قوية تحاول أن تغزو سائر النواحي الثقافية، وتدعو إلىٰ إقامة الفنون علىٰ أسس فرعونية.

ففي صحيفة السياسة الأسبوعية المصرية يقول رئيس تحريرها محمد حسين هيكل في مقال له بعنوان «مصر الحديثة ومصر القديمة» يدعو فيه إلىٰ أن تقوم نهضتها علىٰ بعث المجد اليوناني واللاتيني القديم، وذلك بالبحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب، وكتب العقائد، وطقوس العبادة[(١)].

ثم نشرت الصحيفة نفسها بيانًا تحت عنوان «دعوة إلىٰ خلق الأدب القومي» تدعو فيه إلىٰ خلق أدب محلي يتميز بالطابع المصري[(٢)].

وقد أولىٰ الغربيون ولاسيما المستشرقين منهم اهتمامًا خاصًا بآثار الحضارات القديمة في العالم الإسلامي بهدف تعميق مشاعر الانتماء الوطني الذي يمتد إلىٰ تلك الحضارات الجاهلية، بحيث لا يبق ولاء المسلم خالصًا لدينه وحضارته الإسلامية فحسب بل يكون مشتت الولاء بين الجاهليات القديمة والإسلام.

فقد قام الثري الأمريكي اليهودي الأصل روكفلر (ابن روكفلر الكبير) وأعلن عن تبرعه سنة ١٩٢٦م بعشرة ملايين دولار «وقتئذ» لإنشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن[(٣)].

وقد عقب الدكتور محمد محمد حسين علىٰ ذلك بقوله: والواقع أن اهتمام



(١) السياسة الأسبوعية ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٧م عن الاتجاهات الوطنية ٢/ ١٤٢.

(٢) نفس المصدر السابق ٢٨ يونية سنة ١٩٣٠م عن المصدر نفسه.

(٣) نقلاً عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ١٣٢.

الدول الغربية بتفتيت الوحدة العربية (والإسلامية) كان ظاهرًا لا يخفىٰ، ولم يجمع الخبراء الغربيون في الشؤون الإسلامية والعربية علىٰ شيء مثل إجماعهم علىٰ توقع الخطر من جانب الشعوب الإسلامية الذين يرون مظاهر اتحادهم وطلائع تكتلهم حقيقة واقعة يصعب تجنبها[١].



(١) المصدر نفسه.

المبحث الثاني

أهداف ونتائج الدعوة الوطنية

المطلب الأول: الأهداف الحقيقية من الدعوة للوطنية

لقد كان الغرب يهدف من وراء تصديره الفكر الوطني (والقومي) إلىٰ العالم الإسلامي إلىٰ تحقيق الغايات التالية:

١- إقصاء الإسلام بوصفه المقوِّم الأساس للشخصية المسلمة، والانتقاص من دوره في الحياة.

٢- تحويل حركات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الصليبي إلىٰ حركات وطنية، والحركة الوطنية تختلف عن حركة الجهاد الإسلامي بادئ ذي بدء في أن الحركات الوطنية لا تنظر إلىٰ العدو علىٰ أنه صليبي مستعمر ولكن علىٰ أنه مستعمر فقط، وفرق واضح في درجة العداء، وطريقة المواجهة بين أن يكون العدو منظورًا إليه علىٰ حقيقته، وبين أن يكون مغلفًا برداء الاستعمار فحسب.

٣- تحويل حركات الجهاد الإسلامي إلىٰ حركات سياسية عن طريق تحويلها إلىٰ حركات وطنية، وعندئذ فالتفاهم معها سهل وممكن، ولا سبيل للتفاهم مع المجاهدين المسلمين إلا بإخراج ذلك العدو خارج البلاد.



٤- تيسير عملية «التغريب» وهي نتيجة طبيعية لتحويل حركة الجهاد الإسلامي إلىٰ حركة وطنية سياسية، فحين تقوم حركة الجهاد علىٰ أساس إسلامي يكون الباب موصدًا تمامًا بين المجاهدين وعدوهم، لا يأخذون شيئًا من فكره ولا عقائده ولا

عاداته ولا تقاليده ولا أنماط سلوكه، أما حين يتحول الجهاد إلىٰ حركة وطنية سياسية، فيهون الأمر بضعف الحاجز وسهولة الأخذ لما عند العدو بتعليلات وأعذار شتىٰ[1].



المطلب الثاني: نتائج الدعوة إلى الوطنية

لقد ترك تيار الوطنية في المجتمعات الإسلامية آثارًا خطيرة نذكر منها ما يلي:

١- انتشار الأفكار اللادينية (العلمانية) وتفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوىٰ الإسلامي.

٢- تمكين الاستعمار الغربي من تحقيق أهدافه الشريرة التي تتمثل في هدم الخلافة الإسلامية، وتفتيت الكيان السياسي للأمة، والقضاء علىٰ الوحدة الإسلامية التي كانت تخيف الغرب الطامع في بلاد المسلمين، والتي مثلت سدًا منيعًا حالت دون سيطرته علىٰ العالم الإسلامي[2].

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة الأستاذ محمد قطب ص ٥٧٦ وما بعدها. لكن تجدر الإشارة إلىٰ أن المسلم حين يكون معتزًا بإسلامه وعقيدته فإنه يمكن أن يستفيد من العالم حوله في كل ما تتطلبه نهضته وتقدمه، ولكن دون أن يفقد شخصيته، أو يفقد استعلاءه الذي يستمده من الإيمان، فالحكمة ضالة المؤمن أنىٰ وجدها فهو أولىٰ بها.

(٢) إلا أن صاحب كتاب (إلىٰ أين يتجه الإسلام؟) هـ. أ. جب المستشرق الإنجليزي ينبه إلىٰ أن هذا النصر الذي حققته الاتجاهات الوطنية لا ينبغي أن يصرف الغرب عن الانتباه إلىٰ تيار المعارضة الإسلامي الخفي، الذي يعارض في تفتيت الوحدة الإسلامية إلىٰ كيانات لا دينية، مبينًا أن هذه المعارضة الإسلامية هي أشد قوة في البلاد العربية ويقول: إن في الشرق العربي حركة بعث إسلامي قوية في النواحي الدينية والأخلاقية والاجتماعية، ويقرر أن العرب يتخذون هذا البعث الإسلامي أساسًا لنهضتهم الوطنية، الجديدة) وقد اشترك في تحرير الكتابة أساتذة متخصصون في الدراسات الإسلامية والشرقية من جامعات فرنسا، وألمانيا، وهولندا، وإنجلترا. وهو كلام لا يحتاج إلىٰ تعليق، انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. د. محمد محمد حسين ٢/ ١٣٣ - ١٣٤.



٣- إحياء النعرات الجاهلية القديمة التي كانت سائدة قبل الإسلام، كالفرعونية، والفارسية، والآشورية، والفينيقية، والطورانية وغيرها بقصد إضعاف عقيدة الولاء والبراء لدىٰ المسلم.

٤- تفاخر أهل كل وطن بوطنهم، واحتقار ومعاداة أهل الأوطان الأخرىٰ، وصار ذكر الوطن مدعاة للتفاخر والخيلاء والاستكبار بغير حق، واستيقظت العصبيات الجاهلية بين الناس بتعدد أوطانهم علىٰ طريقة انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا بمعنىٰ الوقوف إلىٰ جانبه سواء كان علىٰ حق، أو علىٰ باطل، بحجة أخوة الوطن.

٥- الغلو في تقديس الأوطان بالدعوة إلىٰ وحدة بين المواطنين حتىٰ وإن كانت وحدة علىٰ الكفر - والعياذ بالله - وفيه يقول الشاعر القروي:

بلادك قدِّمها علىٰ كل أمة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صمِ

هَبوني عيدًا يجعل العرب أمة وسيروا بجثماني علىٰ دين بَرهمِ[1]

سلام علىٰ كفر يوحّد بيننا وأهلًا وسهلًا بعده بجهنمِ

ولا شك أن هذه الوطنية بهذا المعنىٰ هي الجاهلية بعينها، وإن ما أصاب الأمة المسلمة من ضعف وتمزق إنما هو بسبب افتخار وتعصب كل أهل وطن لوطنهم، وعدائهم لغيرهم من الأوطان الأخرىٰ، مما جعل هذه الأوطان متناحرة فيما بينها، ومن ثمَّ لقمة سائغة في فم أعداء الإسلام، وسبيلًا لإذلال الشعوب الإسلامية والتسلط عليها.

٦- احتلال فلسطين عام ١٩٤٨م من قبل اليهود، حيث أصبحت قضية فلسطين مسألة إقليمية، تخص العرب وحدهم دون غيرهم من المسلمين، أو تخص الفلسطينيين وحدهم دون غيرهم من العرب، وأدرجت القضية تحت مسمىٰ قضية الشرق الأوسط، أو كما يسمىٰ: الصراع العربي الإسرائيلي، أو القضية الفلسطينية ونحوه، وذلك نتيجة طبيعية لإقصاء الإسلام عن المعركة مع اليهود، واستبداله بالنعرات الوطنية (أو القومية).

(١) البرهمية ديانة وثنية في الهند.

المبحث الثالث

الموقف من الوطنية

إن حب الإنسان لوطنه وتعلقه به شيء طبعي، ففيه نشأ، وترعرع، درج على ترابه، وتنعم بخيراته وثرواته، وفيه ذكرياته وأحلام طفولته، وإذا كان وطنًا إسلاميًا استحق أن يفتديه بنفسه ليحرره من براثن المغتصبين المعتدين، باذلًا وسعه ليبقىٰ وطنه عزيزًا قويًا بين سائر الأوطان، مع بقاء ولائه لله ولرسوله وللمؤمنين، وليس لتراب الوطن فحسب.

أما دعاة الوطنية (وفق المفهوم السياسي المعاصر) فقد تأثروا بالدعوات الغربية الوافدة في تجريدهم الوطنية من قيم الدين، وتعاليم الشريعة مستبدلين بذلك تقديس الوطن إلىٰ حد العبادة التي أبطلها الإسلام.

يقول العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لكن العالم الإسلامي أصبح بعد ما غزته أوروبا سياسيًا وثقافيًا يخضع لهذه العصبيات الدموية والجنسية (القومية) والوطنية، ويؤمن بها كقضية علمية، وحقيقة مقررة، وواقع لا مفر منه، مع أن الرسول ﷺ قد حارب هذه النزعات الجاهلية، بكل قوة، ومن غير هوادة، وأنذر منها وسدَّ منافذها[1].

ولذلك فقد حسم علماؤنا توزع الولاء بين الإسلام وحب الوطن بقاعدة مفادها: أن الحب الفطري من الإنسان للمكان الذي نشأ فيه أمر لا يتعلق به ذم شرعي، فلا يمنع الإسلام من أن يحب المسلم بلده، ووطنه الذي عاش فيه وتربىٰ، ولكن علىٰ أن لا يكون سبب الموالاة والمعاداة هو الانتماء للوطن، أو عدم الانتماء.

---

(١) انظر إلىٰ الإسلام من جديد ص/ ١٨٠ – ١٨١.

بل الولاء والبراء والحب والبغض ميزانه الإسلام والتقوىٰ، فالنبي ﷺ كان يحب مكة لأنها أحب البلاد إلىٰ الله، ولم يكن ليحب كفارها، بل قاتلهم لما حاربوا الدين وقاتلوا المسلمين[1].

فلا يحل لمسلم أن تقع في قلبه محبة ومودة وموالاة لأعداء الله – بالنظر إلىٰ دينهم – حتىٰ وإن كان يعيش معهم في وطن واحد، فالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين مقدم علىٰ الولاء للوطن.

وخلاصة القول: فإن رَفْضَ الإسلام للفكرة الوطنية مبني علىٰ أن هذه الدعوات تحمل مفهومًا غريبًا لا ينسجم مع مقاصد الشريعة وحكم التنزيل؛ من تفريق لكلمة المسلمين، ومناصرة الباطل، وإقصاء الإسلام عقيدة وشريعة، وموالاة غير المسلمين من الملاحدة والكفار، أما انتساب الإنسان لوطنه ومناصرته علىٰ الخير، والدفاع عنه، والتضحية في سبيله، فهذا مما يؤكده الإسلام ويحض عليه.

وهذا لا يمنع وجودَ أتباع ديانات أخرىٰ، أو مذاهب بدعية، أو أصحاب اجتهادات شخصية، عاشت في أوطان المسلمين عبر التاريخ، من غير إكراه، ولا إضرار.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[2]، مستفيدين من قيم الإسلام في التسامح، والإحسان، والعدل، في التعامل مع الآخرين: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾[3]، والله أعلم.

---

(١) انظر فتاوىٰ العلماء في مسألة (الولاء والبراء) في موقع الإسلام، سؤال وجواب، الأسئلة رقم ٢١٧٩ – ٣٤٧٤٩، عن مجلة البيان عدد ٢٦١ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٣٠هـ مقال للدكتور أحمد إبراهيم قصر ص/ ٥٤.

(٢) سورة البقرة آية/ ٢٥٦.

(٣) سورة الممتحنة آية/ ٨.

الخلاصة

ظهرت فكرة الوطنية مع قيام الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر كرد فعل علىٰ مظالم الكنيسة وتسلطها، وإن كان مفهوم الوطنية بالمعنىٰ المعاصر قد ارتبط في أوروبا بالدولة الحديثة.

وهي نسبة إلىٰ الوطن الذي يقطنه مجموعة من الناس يجمع بينهم شعور بالولاء والتعصب للوطن علىٰ اختلاف أعراقهم وأديانهم دون غيره من الأوطان.

وأول ما ظهر الفكر الوطني في مصر حيث نادىٰ دعاته بتقديم الرابطة الوطنية علىٰ الرابطة الدينية والقومية، وهو ما زاد من حالة الانقسام والتشرذم في المجتمعات الإسلامية.

وكان التعصب للوطن باعثًا قويًا لأن يعمل أهل كل وطن في البحث عن آثار حضاراتهم القديمة قبل الإسلام لنبشها وحفظها في المتاحف، فظهر ما يسمىٰ بالفرعونية في مصر، وبعد ذلك الفينيقية في سوريا، والآشورية في العراق....الخ.

ولا شك أن هذا الانقسام والتفرق يحقق هدفًا استعماريًا يسعىٰ إليه أعداء الإسلام والذي يرمي في النهاية إلىٰ إقصاء الإسلام عن حياة المجتمع كمقوم أساس للشخصية المسلمة، ومن ثمَّ إبعاده عن ساحة المواجهة بين المسلمين والدول الاستعمارية الطامعة في ثروات العالم الإسلامي، بحيث تتحول حركات الجهاد ضد الاستعمار إلىٰ حركات وطنية سياسية يسهل التفاهم معها، ويمهد الطريق أمام تغريب المجتمع المسلم.

وقد نتج عن ذلك انتشار العلمانية وإحياء النعرات الجاهلية، وضياع الأوطان، أما عن موقف الإسلام من دعوىٰ الوطنية فإن الإسلام لا يمنع من حب الإنسان لوطنه والتعلق به والزود عنه - إذا كان وطنًا مسلمًا - ولكن يرفض الوطنية بالمعنىٰ الوافد الذي يجعل الولاء للوطن لذاته من غير اعتبار لرابط الدين التي قررها الإسلام ومارسها المسلمون عبر تاريخهم الطويل.

ومن هنا فلا تعارض بين الولاء للإسلام وحب الأوطان، فالولاء الحق لله ولرسوله وللمؤمنين، أما حب الوطن والولاء له فهو تبع لذلك.



الفصل السادس

الديمقراطية

يشتمل الفصل على:

تمهيد.

المبحث الأول:

حول مدلولات الديمقراطية.

المبحث الثاني:

السيرورة الديمقراطية.

المبحث الثالث:

الدين في منظور الديمقراطية.

المبحث الرابع:

الشورىٰ في الإسلام بديل عن الديمقراطية.

المبحث الخامس:

الإسلاميون والديمقراطية.

المبحث السادس:

موقف الإسلام من الديمقراطية.

الخلاصة.

مراجع مختارة.

تمهيد

إن تنظيم (الاجتماع البشري) من أهم المعضلات التي ظلت تواجه الإنسان منذ القدم، وقد استمر العقل البشري بتقديم اجتهادات متتالية لحل هذه المعضلة، وكان في اجتهاداته ينجح أحيانًا، ويخفق أخرىٰ، بسبب الافتقار إلىٰ النظرة الشمولية التي يتطلبها مثل هذه المشكلة الشائكة.

ولم يكن تنظيم الاجتماع البشري همًا بشريًا فحسب، بل ظل أيضًا مقصدًا إلهيًا وتشريعيًا، فقد تناول التشريع الرباني في كثير من أحكامه وآدابه هذا الشأن، في نسق محكم قوامه التكامل والشمول، في مقابل اجتهادات العقول البشرية التي لا تنفك عن القصور والغفلة والزلل.

ومن بين مختلف جوانب الاجتماع البشري الذي يلزم تنظيمها الجانب السياسي (وهو الأكثر مثارًا للاهتمام، وفي نفس الوقت الأكثر إثارة للاختلاف والجدل). ومن النظم السياسية التي بلورتها التجارب البشرية عبر الزمن، برز مصطلح الديمقراطية في العصر الراهن كأسلوب من أساليب تنظيم الاجتماع السياسي، وقد شاع هذا المصطلح ولقي اهتمامًا من السياسيين والمفكرين، حيث أصبحت الديمقراطية قاسمًا مشتركًا بين أكثر المفكرين والسياسيين، يدعيها اليسار واليمين، والوسط السياسي، والتيار العلماني، وبعض رموز التيار الإسلامي، وذلك في محاولة لإضفاء الشرعية علىٰ الأفكار والمفهومات التي يتبناها كل تيار فكري، كما أصبحت أغلب الأنظمة المعاصرة تنادي

بتطبيق الديمقراطية في محاولة لترسيخ السلطة، أو لإيجاد مشروعية جديدة، أو لإضفاء الشرعية على بعض الممارسات السياسية للنظام، وتحقيق قبول جماهيري لها.

مفهوم الديمقراطية[1]:

تتعدد مفاهيم الديمقراطية وتتباين، خاصة مع تباين التصورات، أو النظرة الكلية للقضية، وأحيانًا كثيرة مع تباين الأهواء والمصالح الخاصة.

وبدون الدخول في محاولة الاستقصاء وتقييم المفاهيم المتعددة للديمقراطية فإنه يمكن تحديد المفهوم الموضوعي المجرد للديمقراطية من منظور قيمي وظيفي بأنها: تَشارُك الناس أفرادًا وشعوبًا وتنظيمات ودولًا في تداول إدارة أمرهم العام، أو المشترك، وخاصة السياسي في حرية وعلى قدم المساواة.

وقد شاعت كلمة الديمقراطية حتى غدت سمة هذا العصر لتشمل النظم المختلفة، فلم تعد تقتصر على ما يعرف بالديمقراطية السياسية فحسب، بل هناك الديمقراطية الاقتصادية، التي يشير مصطلحها إلى رؤية اقتصادية مرسومة من قبل الدولة، تهدف إلى تحقيق أكبر قدر من المساواة في الفرص الاقتصادية وإعادة توزيع الثروات والدخول. وهناك أيضًا ما يعرف بالديمقراطية الإدارية، للدلالة على القيادة الجماعية التي تتم بالمشاركة والمشورة في اتخاذ القرارات، وهناك الديمقراطية الصناعية، وهي عبارة عن تنظيم الصناعة بإشراك العمال في الإدارة والتخطيط، ورقابة العمليات الإنتاجية عن طريق اللجان المختلفة.

والذي يعنينا هنا هو الديمقراطية السياسية إذ هي الشجرة التي تفرعت عنها الديمقراطيات الأخرى.

---

(١) المفهوم: هو مجموعة الصفات، أو الخصائص الموضحة لمعنى كلي، وعلى أساسه يقوم التعريف والتصنيف.

المبحث الأول

حول مدلولات الديمقراطية

الديمقراطية في الأصل كلمة أجنبية المصدر، ولفظ معرَّب ركِّب تركيبًا مزجيًا علىٰ صيغ اللغة العربية، فهي في الأصل مكونة من كلمتين يونانيتين هما: (ديمو) Demos و (كراتيك) Kratiq، وتعنيان في اللغة اليونانية حكم الشعب.

وتطبيقها العملي يعني: حكم الشعب بالشعب عن طريق ممثلين له في مجلس ينتخبه الشعب، يطلق عليه اسم (مجلس الشعب)، أو (مجلس الأمة)، أو (المجس التشريعي)، أو (المجلس النيابي)، أو غير ذلك من الأسماء المعبرة عنه[١].

المطلب الأول: أنواع الديمقراطية

للديمقراطية لدىٰ المفكرين الغربيين مدلولات مختلفة تبعًا لاختلافهم في طبيعة الديمقراطية، ومنها: الديمقراطية الإجرائية، والديمقراطية الإيديولوجية:

أما الديمقراطية الإجرائية:

فيرىٰ أصحاب هذا المدلول أن الديمقراطية لا تعدو أن تكون طريقة معينة لاتخاذ القرارات، ومن ثمَّ فهي ليست فلسفة معينة للحياة، لأنها لا تحوىٰ فلسفة سياسية محددة يبنىٰ عليها نظام، ومن هذا المنطلق يرىٰ بعضهم أن الديمقراطية يمكن

---

(١) إشكاليات الديمقراطية د. محمد سامي الدلال ص/ ٥.

أن تطلق على أي نسق سياسي، أو اجتماعي، أو اقتصادي، كالديمقراطية الرأسمالية، والديمقراطية الاشتراكية، رغم التباين بين النظامين[1]، وعلى هذا القول فالديمقراطية ليست طريقة في الحكم بقدر ما هي طريقة لتحديد من سيحكم، وممن قال بذلك من المفكرين الغربيين: (مكايفر)، و (صاموئيل هنتغتون)، و (روبرت دول) و (جيوفاني سارتوري) و (جو بلا مينتز) وغيرهم، ويرى هؤلاء إن الديمقراطية نظام يتمكن من خلاله المواطنون من ممارسة درجة عالية من السيطرة على الحكام، والذي يظهر فيه التنافس السياسي عن طريق إقرار حق المعارضة وحق المشاركة السياسية.

وقد اعترض على هذا التعريف بأنه اختزال الديمقراطية في حق التصويت والاختيار للمرشحين الذين يعتلون سدة الحكم، وأنه يفرغ الديمقراطية من محتواها، فهناك الكثير من الأنظمة التي يقوم فيها الأفراد بانتخاب الحكام دون أن تقوم فيها ديمقراطية، بل إن بعضها أنظمة استبدادية قمعية.

وأما الديمقراطية الإديولوجية:

فيرى أصحاب هذا المدلول أن الديمقراطية تقوم على قيم اجتماعية محددة، فهي نظام قائم على نظرة معينة للكون والحياة والإنسان، وهي تحمل بعدًا عقديًا، ونسقًا فلسفيًا، تستمد أفكارها من المدرسة الليبرالية التي يعد من أبرز مفكريها: جون لوك، وجون سيتوارت ميل، وآدم سميث، وديفيد هيوم، وهي تقوم على النظرة الفردية للإنسان، والتي تجعل الفرد وحدة مستقلة، قائمة بذاتها، تتصل بغيرها لتحقيق مصالحها الذاتية، ومن ثمَّ فالفرد يمثل غاية البناء الاجتماعي[2].

ومن هذا المنطلق فإن جوهر النظرية الديمقراطية يكمن في تقبل الرأي الآخر

---

(١) نقص الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية د. محمد أحمد مفتي ص/ ١٥.

(٢) المصدر السابق ص/ ٤١، وانظر مبحث الدين في منظور الديمقراطية ص/ ١٧٦.

مهما كان مصدره، أو نوعه، وهذا يعني أن يعيش كل فرد حياته وفقًا لمشاعره الخاصة دون أن تفرض عليه طريقة معينة للحياة، فلا يحق للشخص المتدين أن يفرض علىٰ الآخرين ما يمليه عليه دينه، أو ينكر علىٰ الآخرين حقهم في تبني ما يعتقدون صحته، فإذا لم يتمكن من قبول الآراء الأخرىٰ أو الوصول إلىٰ (حل وسط) بشأن المعتقدات المتنازع فيها، فإن عليه أن يحتفظ بها لنفسه، ولا يطرحها للعامة، لأن ذلك يناقض الروح الرياضية للديمقراطية التي تكفل حرية التدين للجميع"[1].

وهكذا فإن أصحاب هذا القول يرون أن الديمقراطية نظام لا ديني منبثق عن تصور للحياة قائم علىٰ فصل الدين عن الدنيا، ويسعىٰ إلىٰ بناء النظام السياسي علىٰ قاعدتين:

* قاعدة حيادية الدولة تجاه العقيدة.

* وقاعدة سيادة الأمة المترتبة عليها، والتي تعني حق الأمة المطلق في تبني نظام الحياة الذي تراه مناسبًا.



المطلب الثاني: إشكالية التعريف

إن مصطلح الديمقراطية بقي لغويًا علىٰ حاله منذ ألفي سنة وبضع مئات من السنين، إلا أن مضمونها لم يسلم من الخلط والتحريف حتىٰ ادعت الديمقراطية أكثر الأنظمة دكتاتورية في التاريخ.

فـ(هتلر) Adolf Hitler النازي الألماني (١٨٨٩ - ١٩٤٥م) وصف نظامه السياسي بأنه ديمقراطية حقيقية، كما أن (موسيليني) Bento Musolini (١٨٨٣- ١٩٤٥م) النازي

(١) المرجع السابق ص/ ٢٣.

الإيطالي وصف نظامه أيضًا بأنه ديمقراطية شمولية مركزية منظمة، ثم لا ننسىٰ أن الأنظمة الشيوعية الدكتاتورية قد أصرت علىٰ القول بأنها هي الديمقراطية الشعبية الحقيقية، وقد أطلق الشيوعيون علىٰ ألمانيا الشرقية (الشيوعية) وعاصمتها (برلين) ألمانيا الديمقراطية[1].

وهناك العديد من الأنظمة التسلطية الشمولية الاستبدادية في آسيا وأفريقيا، وأمريكا الجنوبية قد تجلببت بجلباب الديمقراطية لتستر جرائمها وتقمع شعوبها.

ويؤكد الدكتور محمد عابد الجابري أن مفهوم الديمقراطية قد تغير وتبدل وأنه في تطور دائم، ففي كل عصر بل ربما أثناء العصر الواحد نفسه كان هناك مفهوم للديمقراطية إن لم يكن مخالفًا للمفهوم الذي ساد قبله، فهو علىٰ الأقل مغاير له إلىٰ حد كبير[2].

أما من حيث المضمون والتطبيق العملي فقد درج المهتمون والباحثون في شأن الديمقراطية علىٰ القول بأنها: **حكم الشعب بالشعب**، أي السيادة في النهاية هي للشعب، وعند التطبيق والممارسة لمضمون التعريف نجد المفارقة الكبيرة في تحديد المراد من مفردات التعريف:

فكلمة (حكم): مثلًا لها مدلولات مختلفة عند من تبنىٰ شعار الديمقراطية، فمعنىٰ كلمة (حُكْم) لدىٰ المدرسة الليبرالية: أن المجلس النيابي - المعبِّر عن الشعب - يضع الدستور الذي تقوم الحكومة علىٰ تنفيذ بنوده.

أما لدىٰ المدرسة الاشتراكية فكلمة (حكم) تعني أن مجلس الشعب - المعبِّر عن اتحاد القوىٰ العاملة - أي طبقة البروليتاريا - يقوم بسن القوانين والتشريعات التي تقوم الحكومة بتنفيذها بعد إقرارها من قبل ما يسمىٰ (باللجنة المركزية للحزب الشيوعي).

---

(١) الديمقراطية في ميزان العقل والشرع، نايف معروف ص/ ٨٤.

(٢) الديمقراطية وحقوق الإنسان د. محمد عابد الجابري ص/ ١٣ - ١٤.

أما لدى الأنظمة الديكتاتورية الأخرى فمعناه أن المجلس النيابي المعبِّر عن مصلحة الفئة الحاكمة والمكرِّس لتسلطها وهيمنتها هو أداة تشريع القوانين.

أما كلمة (الشعب): فهي محل خلاف كبير أيضًا لدى دعاة الديمقراطية على تنوع مشاربهم، فعامة المدارس الديمقراطية تعرف (الشعب) بأنه مجموع الأفراد الذين يقيمون ضمن حدود جغرافية معترف بها دوليًا ويعبِّر عنهم نظام سياسي حاكم.

أما الشعب في نظر المدرسة الاشتراكية والديكتاتورية فهو: مجموع الأفراد الذين ينطبق عليهم القانون، وأما المنتمون للحزب الحاكم فالأمر بالنسبة إليهم يختلف عن مجموع الأفراد فهم إما فوق القانون، أو ينطبق عليهم القانون بطريقة خاصة، وهم بهذا التصنيف فوق الشعب.

أما كلمة (بالشعب) أي السيادة: فهي أيضًا ذات مفاهيم مختلفة لدى المدارس الديمقراطية، ففي المدرسة الليبرالية الشعب لا يحكم نفسه، بل هناك أفراد رأسماليون وأصحاب وجاهات اجتماعية يمارسون التشريع وفق رؤيتهم تحت قبة المجلس النيابي، فهم أقلية يحكمون أكثرية وهم يمثلون أنفسهم، ولا يمثلون الشعب الذي يشرعون باسمه.

أما المدرسة الاشتراكية: فالسيادة فيها هي لمجموع القوى العاملة من خلال ممثليها في مجلس الشعب، ولا بد أن يكونوا منتمين للحزب الحاكم، فالديمقراطية لدى هذه المدرسة هي حكم الشعب بالحزب بالحاكم.

وأما المدرسة الديكتاتورية فالمجلس النيابي ليس سوى صورة مجردة، مهمته تشريع القوانين التي تخدم مصلحة النظام، فمفهوم السيادة في نظر هذه المدرسة هو حكم الشعب بمجلس يصنعه النظام الحاكم وفق متطلبات مصلحته[1].

---

(١) انظر إشكالية الديمقراطية ص/ ٧١ بتصرف.

ويقال هذا في إشكالية الحرية، وحقوق الإنسان، فالحرية يختلف مفهومها وحدودها من نظام إلىٰ آخر كما أن الإطار العام لحقوق الإنسان في واقع التعامل ليس له ضابط مقرر، لذلك فإن تعدد المكاييل في مجال حماية حقوق الإنسان - حتىٰ لدىٰ أكثر الدول ادعاء للديمقراطية - دليل بيِّن علىٰ فساد المضامين النظرية والشعارات الجوفاء المعلنة.



المبحث الثاني

السيرورة الديمقراطية

المطلب الأول: لمحة عن تاريخ الديمقراطية

لقد مرت الديمقراطية عبر تاريخها في محطات كثيرة بدأت من الدولة الإغريقية القديمة[1]، إلىٰ أن أصبحت عنوانًا لنظام الحكم في الولايات المتحدة، والأنظمة القائمة في أوروبا، والشرقية أخيرًا، وبعض الدول الأخرىٰ في العالم مع اختلاف ظاهر في تحديد المضمون والآليات - كما سبق - وإليك موجز للمسار التاريخي للديمقراطية:

١ - الديمقراطية الإغريقية القديمة:

لقد ظهر الفكر الديمقراطي لأول مرة في المجال التطبيقي في مدينة أثينا اليونانية عقب الحرب الضروس التي وقعت بين الفرس واليونان في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد (٤٩٧-٤٩٢ ق.م) والتي كان من نتائجها سقوط نظام حكومة الفرد، وخروج أثينا منتصرة بعد أن أكدت زعامتها علىٰ جميع المدن اليونانية (عدا أسبارطه).

وكانت الممارسة الديمقراطية الأثينية - نسبة إلىٰ أثينا - قد بدأت بتجربة بالغة البساطة حيث كان الشعب كله يجتمع بذاته في جمعية شعبية تضم من تتوافر فيه الشروط المطلوبة، أي أن يكون أثينيًا حرًا ذكرًا يبلغ الثامنة عشر من العمر، وتتولىٰ هذه الجمعية

---

(١) وهذا لا يعني أن الشرق القديم لم يعرف الفكر الديمقراطي فقد نادىٰ كونفوشيوس **Confucius** الحكيم الصيني (حوالي) ت ٤٧٩ ق.م) وتلميذه مانشيوس **manicius** بمبدأ السيادة الشعبية قبل ذلك. كما أعلنا رضىٰ الشعب بالحاكم، و حق الشعب في الثورة علىٰ الحكم الجائر، انظر أصول الفكر السياسي د.ثروت بدوي ص/ ٣٨.

سلطات المجالس النيابية الحديثة، من تشريع للقوانين ومراقبة لأعمال الحكومة، أما رجال الحكومة أنفسهم وغيرهم ممن يشغلون الوظائف العامة كالموظفين العموميين والقضاة وقادة الجيش وضباطه، وغيرهم فيختارون بالانتخاب، حيث كان يتم انتخاب ضعف العدد المطلوب، ثم تجري القرعة بينهم لاختيار العدد اللازم لملء الأماكن الشاغرة[1].

وتعتبر أثينا هي المكان الأول الذي تم فيه تطبيق الحكم الديمقراطي، والتي منها جاء استعمال مصطلح (الديمقراطية) وهي في حقيقتها تجربة محدودة بالمعنى المتعارف عليه الآن فلم يكن لكل أفراد المجتمع الحق في المشاركة في صناعة القرار السياسي آنذاك، فالعبيد والأجانب المقيمون في أثينا لم تشملهم التجربة الديمقراطية، وهاتان الطبقتان كانتا تشكلان أغلبية سكان المدينة، فضلًا عن عدم مشاركة النساء، فالحياة السياسية كانت محصورة بالعرق والجنس والحالة الاقتصادية للفرد، (أي الملاك دون الفقراء والمساكين والعبيد).

٢- الديمقراطية القيصرية:

وهي التي تحققت في ظل النظام الاستبدادي الذي أقامه نابليون بونا برت Napoleon Bonabart في فرنسا وفقًا للدستور الذي أصدره في ١٣ كانون الأول ١٧٩٩ وكذلك النظام المماثل الذي أسسه لويس نابليون Louis Napoleon وعرف بدستور ١٨٥٢م وتقوم هذه الديمقراطية عل تقديس الحاكم الذي كان يسمى حينذاك بـ(القيصر) بوضع السلطة المطلقة في يده ثقة بقدراته ونواياه بعد إجراء استفتاء شعبي ظاهري لتعزيز نفوذه في عيون عامة الناس.

٣ - الديمقراطية التقليدية (الغربية):

وهي تلك المبادئ التي اتخذتها الثورة الفرنسية أساسًا لدستورها، كما كانت أساسًا للأنظمة الفرنسية المتعاقبة بغد الثورة، ثم انتشرت في مختلف دول غربي



(١) انظر الديمقراطية وفكرة الدولة د. عبد الفتاح حسين العدوي ص/ ١٤.

أوروبا، وأمريكا، وهو المثل الذي تحتذي به هذه الدول في العصر الحديث، بعد تعديل هنا، وترقيع هناك.

٤- الديمقراطية الشعبية:

وهي التي استوحت - أساسًا - المذهب الماركسي، وتطبيقاته في الاتحاد السوفيتي وغيره من الدول الاشتراكية وذلك قبل انهيار المعسكر الاشتراكي مؤخرًا.

٥- الديمقراطية الاشتراكية:

وهي التي تأخذ بها الأحزاب الاشتراكية الأوروبية الغربية، والتي تعمل علىٰ تحقيق نوع من الاشتراكية عن طريق البرلمان، وترجع في فلسفتها إلىٰ مصادر غير ماركسية، مثل المسيحية والأناجيل، وبعض الفلاسفة، وتختلف عن الأحزاب الشيوعية التي تلجأ إلىٰ فكرة الصراع الطبقي، وجدليته، لتحقيق الاشتراكية[١].



المطلب الثاني: العقد الاجتماعي والأساس الديمقراطي

لقد تحددت معالم الديمقراطية الحديثة علىٰ يد ثلاثة من الفلاسفة الأوروبيين علىٰ أنهم أقطاب نظرية العقد الاجتماعي[٢] وهم:

١- توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩م).

٢- جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م).

٣- جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م).

---

(١) الديمقراطية وفكرة الدولة د. عبد الفتاح حسن العدوي ص/ ١٤ وأيضًا إشكاليات الديمقراطية ص/ ٢٩ وما بعدها.

(٢) العقد الاجتماعي هو اتفاق مفترض بين الحاكم والمحكوم حددت فيه واجبات وحقوق كل منهما وإن كان الغربيون لا يملكون الدليل المحدد في الزمان والمكان علىٰ انعقاد هذا الاتفاق والذي يبدو أنه افتراض نظري فحسب.

١- أما توماس هوبز (الانجليزي): فيعتبر الأب الروحي الفكري لهذا الميثاق في بريطانيا، وتقوم نظريته على أن الإنسان في طبيعته البشرية مجبول على الأنانية، ويسعى إلى تحقيق مصلحته الذاتية دون مبالاة بما للآخرين من حقوق ومصالح، ولو ترك الناس وفق طبيعتهم لسيطر القوي على الضعيف، ولما كانت الطبيعة - وفق اعتقاده - قد ساوت بين الناس في الخصائص الجسدية والروحية إلى حد كبير فلا أحد يقبل أن يتنازل طواعية عما تحقق لديه على أمل الحصول على المزيد، وبذلك تصبح شهوة السلطة والتفوق مصدرًا دائمًا للمنافسة والعداء بين الناس.

وعندئذ فلا مناص من أن يجرد المجتمع من حقوقه سلطة تعلو عليه وتفرض على الجميع من الجميع الحرية والبقاء والأمان[١].

ومن هنا جاءت فكرة هوبز بـ(العقد الاجتماعي) الذي بمقتضاه يتعاقد الناس على اختيار حاكم يتولى أمرهم، ويتفقون - بموجبه - على إقامة مجتمع يراعي فيه كل فرد حقوق غيره، وقد وكَّل - في الوقت ذاته - إدارة هذا المجتمع إلى سلطة عليا ذات سيادة تتمثل في حاكم فرد، أو مجموعة أفراد، وبهذا التنظيم ينتقلون من الحياة الطبيعية البدائية إلى المجتمع المدني الراقي، وبموجب هذا العقد يتنازل الأفراد لهذا الحاكم عن كل الحقوق، فيطلقون له حرية التصرف بلا شروط أو قيود، وعلى الجميع طاعته والخضوع له، والرضا بتصرفاته، وله سلطة وضع القانون وتعديله وإلغائه.

ولا ننس أن هوبز - كما يقول د. عبيدات - كان على صلة وثيقة بالأسرة المالكة البريطانية (آل ستيوارت) حينذاك، والتي كانت في صراع شديد مع البرلمان البريطاني فكان تركيزه على أن تكون السيادة المطلقة للحاكم (الملك) كوسيلة فعالة لضبط

---

(١) انظر الطريق إلى الديمقراطية د. عصمت سيف الدولة ص/ ٣٨، وأيضًا التاريخ الفكري لليبرالية (مقال: جورج طرابيشي - جريدة الحياة الأحد ١٤ كانون الأول ١٩٩٧م.

عوامل الاضطراب في الدولة، وبذلك خرج هذا الفيلسوف البريطاني - تحت شعار العقد الاجتماعي - بنظرية سياسية استبدادية، جعل فيها السلطة المطلقة بيد فرد الحاكم، يضع القوانين بلا رقابة توقفه عند حده إذا تجاوز الحقوق والواجبات نحو رعيته[1].

٢- أما معاصره (جون لوك): فقد تناول الأفكار ذاتها التي تناولها هوبز إلا أنه في نظرته لحال فطرة الإنسان كان أكثر تفاؤلًا علىٰ خلاف هوبز في نظرته التشاؤمية لطبيعة الفرد، ويرىٰ (لوك) أن تعدد مصالح الأفراد وافتقارهم لوجود التنظيم الذي يحفظ هذه الحقوق، ويضمن لكل فرد حصوله علىٰ حقه، لا يتأتىٰ لهم إلا بإبرام عقد بينهم بالرضا يختارون بموجبه شخصًا من بينهم يتولىٰ مهمة الحكم في الجماعة، وبمقتضىٰ هذا العقد يتم تنازل الأفراد عن جزء من حقوقهم لهذا الحاكم نظير قيامه بأعباء الحكم ورعاية مصالحهم وحقوقهم، ويتمسكون بالجزء الآخر من حقوقهم بحيث لا يجوز للحاكم النيل منه، أي الحريات العامة، والحقوق الأساسية للأفراد[2]، وعند إخلاله بذلك يجب الثورة عليه وعزله فهو بخلاف (هوبز) يرىٰ ممارسة الحاكم للسلطة مقيدة بشروط يفرضها عليه الذين فوضوا إليه هذه السلطة.

٣- أما (جان جاك روسو)[3] السويسري المولد، والفرنسي النشأة: فيعتبر بحق فيلسوف الثورة الفرنسية في نظريته (العقد الاجتماعي) فهو المرجع الذي استلهم منه رجال الثورة الفرنسية أفكارهم ومبادئهم، مع أن روسو تناول نفس الموضوعات التي تناولها الفيلسوفان هوبز ولوك إلا أنه يميل إلىٰ قول لوك في نظريته المتفائلة لطبيعة الإنسان،

---

(١) دراسات في علم السياسة د. يوسف محمد عبيدات ص/ ٧٩.

(٢) الفكر السياسي من أفلاطون إلىٰ محمد عبده د. حورية مجاهد ص/٣٩١، ودراسات في علم السياسة ص ٨٢ - ٨٣.

(٣) ولد في سويسرا عام ١٧١٢ وكتب كتابه العقد الاجتماعي، وكتابه الآخر إميل ونشرهما عام ١٧٦٢م وتوفي في فرنسا عام ١٧٧٨م.

ولهذا نادىٰ بالعودة إلىٰ الطبيعة الخيِّرة للإنسان وإلقاء عبء الأعراف والتقاليد جانبًا، وكانت أول عبارة وردت في كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) قوله: لقد ولد الإنسان حرًا لكننا نراه مكبلًا بالأغلال في كل مكان، وهو يرىٰ أن هذه الأغلال التي تكبله تعود إلىٰ الأنظمة السياسية التي حرمت الناس حرياتهم الطبيعية التي ولدوا عليها، وحولتهم إلىٰ قطيع من الأغنام، ولكل قطيع راعيه الذي يحرسه ليفترسه[1].

ويرىٰ روسو أيضًا أن العقد الذي يبرمه الأفراد تتولد عنه إرادة عامة تسمىٰ إرادة الأمة التي هي صاحبة السلطة علىٰ الأفراد جميعًا، أما الملك أو الحاكم فإنه - وفقًا لتصوره - ليس طرفًا في العقد، ولكنه مجرد وكيل عن الأمة ارتضته حاكمًا لها بناءً علىٰ إرادتها لا إرادته هو، وما دام الأمر كذلك فإن للأمة الحق في عزله وتنحيته عندما تشعر أنه قد تعسف في استعماله لهذه السلطة، بجنوحه نحو الاستبداد[2].

ويرىٰ (روسو) أن توضع جميع السلطات في يد الجماعة لأنها المعبرة عن إرادة الشعب، وبذلك جعل من الإرادة الشعبية إرادة عامة، أي إرادة جماعية[3]، ويضيف قائلًا: علمًا بأنه لو أخذنا كلمة (الديمقراطية) بكل معناها الدقيق نجد أن الديمقراطية الحقيقية لم توجد أبدًا، ولن توجد أبدًا، فما يخالف النظام الطبيعي أن يحكم العدد الأكبر، وإن يكون العدد الأصغر هو المحكوم، ولا يمكن أن نتصور بقاء الشعب مجتمعًا علىٰ الدوام للنظر في الشؤون العامة[4].

وقد نادىٰ روسو بنظرية (العقد الاجتماعي) ليحارب من خلالها نظرية الحق

---

(١) الديمقراطية وحقوق الإنسان د. محمد عابد الجابري ص/ ١٥١.

(٢) راجع نظرية الدولة في الإسلام د. عبد الغني بسيوني، وعلم السياسة د. إبراهيم درويش ص ١٧٣ ودراسات في علم السياسة د. محمد يوسف عبيدات ص/ ٨٥.

(٣) تاريخ الفكر الأوروبي: رونالد سترومبرج ص/ ٢٠٩.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

الإلهي الذي تبنته الكنيسة، قبل الثورة الفرنسية، ولا شك أن أوروبا عاشت العصور الوسيطة في صراع مرير بين رجال الكنيسة وبين رجال الفكر والفلسفة، وأن هذا الصراع قد انتهىٰ إلىٰ طلاق بائن لا رجعة عنه، فانزوىٰ رجال الدين في كنائسهم وأديرتهم تاركين الساحة السياسية لأربابها - كما أوضحت ذلك مفصلًا عند الحديث عن العلمانية -.

ونظرًا لغياب المرجعية الإلهية الصحيحة عند هؤلاء الفلاسفة، فقد اتخذوا من عقولهم المحدودة حاكمًا في قضاياهم، وفهمهم لماهية الإنسان وغاية وجوده في هذه الحياة، فاتفقوا هنا، وافترقوا هناك.



المطلب الثالث: الديمقراطية المعاصرة

إن الديمقراطية المعاصرة - من الوجهة العملية الواقعية - نظام من أنظمة الحكم تقوم علىٰ اتفاق ملحوظ بين عدة جماعات، أو أحزاب، تريد أن تصل إلىٰ السلطة عن طريق صناديق الاقتراع علىٰ أن لا تلجأ إلىٰ الاقتتال فيما بينها فيما إذا استطاعت إحدىٰ الجماعات أو أحد الأحزاب أن يتولىٰ السلطة في وقت من الأوقات، وهو ما يسمىٰ بتداول السلطة.

ويستخدم حاليًا لوصف نظام الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية، والأنظمة القائمة في أوروبا الغربية والشرقية أخيرًا، مع أنهم يختلفون في تحديد مضمونها في بعض الأحوال، إلا أنهم لا يختلفون علىٰ أن الديمقراطية نظام حكم يقوم علىٰ وجود مجموعة من المؤسسات يفترض فيها - نظريًا - أنها تمثل غالبية الشعب في تلك البلدان، وهذا الأمر يتحقق عن طريق إعطاء الناس حق انتخاب ممثليهم بعيدًا - ولو نظريًا - عن الضغط والإكراه، كما يعطيهم هذا النظام حق التعددية في تكوين الأحزاب السياسية.



ومن خصائص الديمقراطية المعاصرة وجود المعارضة السياسية، والهدف من وجودها مراقبة أداء الحكومة وتداول السلطة[1].

وهكذا فإن الديمقراطية بالمفهوم الرأسمالي التقليدي المعلن في بلاد الغرب تقوم علىٰ الأسس التالية: الانتخابات، والمجالس النيابية، والحكومة التنفيذية، وتداول السلطة، وهذه هي الديمقراطية في مظهرها الخارجي لمن يتابع مشاهدها علىٰ مسرح الحياة السياسية المعاصرة.

أما في واقع الحال التطبيقي العملي فالأمر مختلف كما جاء تفصيله سابقًا عند الحديث عن إشكاليات التعريف.





---

(١) انظر أزمة الديمقراطية المعاصرة، الصديق الشيباني ص/ ١٦ نقلاً عن الديمقراطية في ميزان العقل والشرع ص ٧٩.

المبحث الثالث

الدين في منظور الديمقراطية

إن معرفة موقف الديمقراطية من الدين يتوقف على فهم طبيعة الديمقراطية ذاتها، فالديمقراطية نظام قائم على نظرة محددة للكون والحياة والإنسان، وهي تحمل بعدًا (عقديًا)، وترتبط بمفهومات محددة، ومعتقدات مشتركة بين أفراد الجماعة. والديمقراطية بهذا المعنى تمثل نسقًا فلسفيًا، أو قاعدة تبنى عليها النظرة إلى المجتمع، وتستمد هذه النظرة جذورها من مصدرين رئيسين:

الأول: الثورة الفرنسية (سنة ١٧٨٩م) التي كانت تتويجًا لانتصار الشعوب الأوروبية المظلومة - ومعهم العلماء - على تسلط الكنيسة ورجال الدين - كما جاء بيانه عند الحديث عن العلمانية - وكان من أبرز إجراءاتها إقصاء الكنيسة نهائيًا عن المجتمع والدولة، أو ما يسمى فصل الدين عن الحياة.

والثاني: أفكار المدرسة الليبرالية التي يعد من أبرز مفكريها جون لوك، وجون ستيوارت مل، وآدم سميث، وديفيد هيوم - كما أسلفنا - في نظرتهم (الفردية) للإنسان، والتي تجعل الإنسان وحدة مستقلة قائمة بذاتها، تتصل بغيرها لتحقيق مصالحها الذاتية، ومن ثمَّ فالفرد يمثل غاية البناء الاجتماعي[1]. ومن هذا المنطلق يؤكد سميث وغيره أن جوهر النظرية الديمقراطية يكمن في تقبل الرأي الآخر مهما كان مصدره أو نوعه، وصوَّر (توماس جيفرسون) تقبل الرأي الآخر بقوله: أنا لا يضيرني إن قال جاري: إن هناك عشرين إلهًا أو لا إله، إن هذا لا يخرق جيبي ولا يكسر رجلي[2]، وبناءً

(١) عن نقص الجذور الفكرية للديمقراطية العربية، محمد أحمد علي مفتي ص/٢١ - ٢٣.

(٢) نفس المصدر ص/٢١.

عليه فإن أول مهام للديمقراطية يكمن في تشجيع الناس علىٰ تطوير أفكارهم الدينية، دون أن تفرض عليهم طريقة معينة للحياة.

وعن موقع الدين في النظام الديمقراطي يؤكد (كرن شيلدز) أن الديمقراطية نظام سياسي علماني، فالدين لا علاقة له بالديمقراطية، فهو - أي الدين - يعد مسألة فردية خاصة، لا علاقة لها بالتنظيم السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي. فالديمقراطي يمكن أن يكون بروتستانتيًا، أو يهوديًا، أو ملحدًا، أو مؤمنًا، لأن الديمقراطية مذهب محايد لا يرتبط بالبواعث الدينية أو المضادة للدين[1].

ومن هنا يمكن القول: إن الديمقراطية ليست عملية إجرائية أو آلية انتخابية ولا تعد كونها طريقة لاتخاذ القرارات - كما يظن بعضهم - فإن هذا القول رغم إغفاله للمؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الانتخابات فإنه يغفل أيضًا حقيقة أخرىٰ أهم وأخطر وهي أن قيام الديمقراطية يرتبط بتوفر شروط أساسية أهمها (العلمانية)، فالديمقراطية نظام للحياة قائم علىٰ حيادية الدولة تجاه القيم الدينية والأخلاقية، انطلاقًا من قاعدة أساسية للبناء الديمقراطي تتمثل في (حرية العقيدة) أي حق الأفراد المطلق في تبني ما يشاؤون من عقائد دون تدخل من أحد، ودونما تأثير علىٰ مسار المجتمع والدولة، وذلك لاندراج العقيدة ضمن الخيارات الفردية التي لا يجوز للدولة التدخل فيها بحال من الأحوال[2].

وعلىٰ هذا فإن الديمقراطية نظام لا ديني (لا يعادي الدين ولا ينصره في أحسن أحواله) منبثق من تصور عن الحياة قائم علىٰ فصل الدين عن الدنيا، ويسعىٰ إلىٰ بناء النظام السياسي علىٰ قاعدتين: قاعدة حيادية الدولة تجاه الدين، أو العقيدة، وقاعدة سيادة الأمة المترتبة عليها، والتي تعني حق الأمة المطلق في تبني نظام الحياة الذي تراه مناسبًا[3].

---

(١) نفس المصدر ص/ ٢٤.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر ص/ ٢٦ - ٢٧.

المبحث الرابع

الشورى في الإسلام بديل عن الديمقراطية

الشورىٰ ضرورة إنسانية في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلاقات الفردية، والإسلام دين ودولة، وهو نظام شامل متكامل يحكم جوانب الحياة كافة، وإن تطبيق نظامه السياسي لا يتحقق إلا بوجود حاكم مسلم يحكم بالإسلام وفق قواعده وأحكامه، والشورىٰ جزء من هذا النظام.

يقول الراغب الأصفهاني: الشورىٰ تعني أخذ الرأي من الآخر، والتشاور هو أخذ الرأي وإعطاؤه، والشورىٰ - أيضًا - الأمر الذي يُتشاور فيه، وذلك بهدف الوصول إلىٰ الرأي الأصوب، أو لمعرفة رأي الناس[1].

والشورىٰ حق من حقوق الأمة علىٰ حاكمها، وذلك امتثالًا لأمر الله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2]، وقوله ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[3].

وقد كان ﷺ يعود إلىٰ أصحابه ويستشيرهم في أمور المسلمين العامة والخاصة، واتخذ هيئة استشارية تكونت من كبار أصحابه رضي الله عنهم منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

---

(١) المفردات: شورىٰ.

(٢) سورة الشورىٰ آية/ ٣٨.

(٣) سورة آل عمران آية/ ١٥٩.

وقد يتحول أهل الشورىٰ إلىٰ مجلس يتم اختيارهم (انتخابهم) من قبل الناس أنفسهم، كما فعل رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية، إذ ترك انتخاب النقباء للمسلمين أنفسهم حين قال للأنصار: «**اختاروا لي منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا علىٰ قومهم بما فيهم**»، فأخرجوا اثني عشر نقيبًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[1]، وقد سار أصحاب النبي ﷺ علىٰ هديه بعد انتقاله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ.

قال صاحب فتح الباري رَحِمَهُ اللهُ وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بها، إذا لم يكن هناك نص معيَّن، وكانت علىٰ أصل الإباحة، وأما تقييده بـ(الأمناء) فهي صفة موضحة، لأن غير المؤتمن لا يستشار ولا يلتفت إلىٰ قوله[2].



المطلب الأول: قاعدتا الشورى في الإسلام

تقوم الشورىٰ في الإسلام علىٰ قاعدتين هامتين لا تتغيران بتغير الزمان والمكان:

القاعدة الأولى: أن السيادة في النظام الإسلامي لشرع الله، أي أن الأحكام والقوانين تؤخذ من كتاب الله ومن سنة رسوله، وما فيهما من دلالة علىٰ قياس، أو إجماع، وغيرهما من المصادر الفرعية الشرعية الأخرىٰ عند بعض الفقهاء.

القاعدة الثانية: أن السلطة للأمة، فهي صاحبة الحق في تولية أمرها لمن تنطبق عليه شروط الخلافة (الإمامة) التي اتفق عليها جمهور العلماء، أو لمن تولىٰ أمرها عن طريق البيعة الشرعية، وذلك كما حصل في سقيفة بني ساعدة في العهد الراشدي.



---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني ١٣/ ٣٤٢.

أما مهمة مجلس الشورىٰ في الإسلام فهي مراقبة الحاكم وأعوانه، وولاته، وممارستهم، وذلك في ضوء الدستور الإسلامي.

وعلىٰ كل حال فالدولة الإسلامية واحدة من حيث المبادئ، متعددة في الأشكال حسب الزمان والمكان.



المطلب الثاني: مسألة الأكثرية والأقلية

أما الأخذ بالشورىٰ في الإسلام من حيث تحقق الأكثرية فهناك خلاف بين العلماء والباحثين في هذا الشأن.

وقد ورد عن النبي ﷺ وجهان في هذه المسألة:

ففي غزوة الخندق ظهر خلاف في الرأي بين الصحابة حول البقاء في المدينة والدفاع عنها، أو الخروج خارجها لمقابلة العدو.

فقد مال فريق منهم إلىٰ البقاء في المدينة والدفاع عنها من داخلها، بينما فضَّل فريق آخر مواجهة قريش خارج المدينة. فنزل رسول الله ﷺ عند رغبتهم مع أنه كان يميل إلىٰ البقاء في المدينة ثم كانت المعركة عند جبل أحد، ولم تكن نتيجة المعركة في صالح المسلمين، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ لم يلم أحدًا علىٰ ذلك[1].

بينما نجده ﷺ يوم الحديبية في آخر سنة للهجرة يستشير أصحابه ثم لا ينظر إلىٰ كثرة الآراء وقلتها[2]، وإزاء ذلك كان للعلماء المعاصرين قولان:

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٣٠٦.

القول الأول:

يرىٰ أصحابه أنه لا يلتفت إلىٰ قول أكثرية أو أقلية، والنبي ﷺ لم يأخذ بمبدأ الأقلية أو الأكثرية في اتخاذ القرارات، وإلا كان وَضَعَ لهذا المبدأ نظامًا معينًا يوضح فيه حكم إلزام الشورىٰ للحاكم أو ولي الأمر بالأكثرية، وبناء عليه فإن الفقهاء لم يتعرضوا لمبدأ الأكثرية الملزمة في الشورىٰ، وهو مبدأ حديث العهد، وغير إسلامي، ولو كان مبدأ إسلاميًا لتنبه الفقهاء إليه، ووضعوا له قوانينه ونظمه كما هو الحال في بحوث الفقه المختلفة.

القول الثاني:

وهؤلاء يرون أن مبدأ الأكثرية معروف في الإسلام، وأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يرجحون بكثرة العدد[1]، ونص علماء الأصول علىٰ أن الكثرة حجة، ويقولون أيضًا: الأكثرية مدار الحكم عند فقدان الدليل.

ومن الشواهد علىٰ ذلك أن الرسول ﷺ قوىًّ خبر ذي اليدين بموافقة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأبو بكر قوىٰ خبر المغيرة في ميراث الجدة بموافقة محمد بن مسلمة، وقوىٰ ابن عمر خبر أبي هريرة في من شهد جنازة بموافقة عائشة رضي الله عنها. إلىٰ غير ذلك مما يكثر فيكون إجماعًا منهم[2].

ولا شك أن هذا مما اعتاده الناس في حراثتهم وتجارتهم وسلوك الطريق، فإنهم عند تعارض الأسباب يميلون إلىٰ الأقوىٰ[3].

ومن ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن أبا بكر صار إمامًا بمبايعة جمهور



(١) انظر روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة ٣/ ١٠٣١.

(٢) نفس المصدر ٣/ ١٠٣٢

(٣) نفس المصدر السابق.

الصحابة[1]، ويقول الشيخ محمد أمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ ويقدم من زكاه جماعة كثيرون علىٰ من زكاه واحد مثلًا[2].

وأما إلزام الحاكم بمضمون الشورىٰ في اتخاذ القرارات فيتفق مع قول معظم المعاصرين من الفقهاء والعلماء[3] عدا قلة منهم: أمثال الشيخ أبي الأعلىٰ المودودي، ومحمد يوسف موسىٰ، وعبد الحميد متولي وغيرهم، ولكل حجته والأول أقرب لأن إلزام الحاكم بالشورىٰ إقامة للمصالح العامة، وهو من أغراض الشريعة، ولا سيما إذا كان الأمر متعلقًا بمصالح الأمة العليا كإعلان حرب، أو إبرام صلح، ونحو ذلك والله أعلم.



(١) منهاج السنة النبوية ١/ ٥٣٠.

(٢) مذكرة في أصول الفقه ص/ ٣٧٨.

(٣) مما يجب التنبيه إليه أنه لا يجوز التعويل بالأكثرية في الحالات التالية:

أ- إذا كان الأمر متعلقًا بمعلوم من الدين ضرورة.

ب- إذا كان فيه نص قطعي الثبوت.

ج- إذا كان فيه نص قطعي الدلالة.

د- إذا كان فيه حكم ثابت بالإجماع.

وعندئذ فالترجيح بالكثرة يدخل في المسائل الظنية في سائر العلوم مثل التفسير والجرح والتعديل ورواية الحديث ومذاهب الفقهاء الاجتهادية، وغيرها من الأمور المتعلقة بالأمور الدنيوية ونحوها.



المبحث الخامس

الإسلاميون والديمقراطية

اعتبر بعض الإسلاميين الديمقراطية مطلبًا شرعيًا يمكن من خلاله استئناف الحياة الإسلامية، وذلك عن طريق الربط المباشر وغير المباشر بين الديمقراطية وبين النظام السياسي الإسلامي.

وقد مارس هؤلاء الانتقائية أو التبعيض في فهم الديمقراطية، وبالتالي في تطبيقها، فهناك من يفهم الديمقراطية علىٰ أنها التعددية الحزبية، وهناك من يفهمها علىٰ أنها وسيلة لاختيار الحاكم (الديمقراطية الإجرائية)، مع رفضهم للفلسفة التي تقوم عليها في بعدها العقدي في نظرتها للكون والحياة والإنسان.

وهناك من يرىٰ في الديمقراطية ملاذًا من النظم الديكتاتورية، أو الشمولية، إلىٰ غير ذلك، وفي الحقيقة أنه لم يختلف الإسلاميون المعاصرون في أمر من الأمور كاختلافهم في مسألة الديمقراطية.

فمن قائل بقبولها بإطلاق علىٰ اعتبار أنها والشورىٰ في الإسلام شيء واحد، ومن رافض لها بإطلاق باعتبارها حكمًا بغير ما أنزل الله وتحاكم إلىٰ الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به. وهناك من يتردد في حكمه عليها، بالنظر إلىٰ جوانبها المختلفة، فهي عنده مقبولة باعتبار، ومرفوضة باعتبار آخر.

وها نحن نستعرض مختلف المواقف، ومناقشتها بأسلوب الحوار الهادف، من خلال ما عرف من واقع التجربة الديمقراطية لدىٰ أصحابها - كما سبق - ومن خلال

الاتفاق على أن الحكم الأخير منوط بقوة الدليل الشرعي، فهو القول الفصل، والحكم العدل، وميزان الحق والباطل، وإليك عرض مجمل لهذه الأقوال:



المطلب الأول: القائلون بأن الديمقراطية هي الشورى في الإسلام

تكاد تكون حجج القائلين بأن الديمقراطية هي الشورى الإسلامية - سعيًا للتوفيق بينها وبين الإسلام - متقاربة إن لم تكون واحدة، لذا فسأكتفي بعرض بعض أقوالهم خوف الإطالة:

يقول أحد المفكرين الإسلاميين: لا يحسبن أحد أنه يمكن أن تقوم لنا قيامة بغير الإسلام، أو أن يستقيم لنا حال بغير الديمقراطية، إذ بغير الإسلام تزهق روح الأمة، وبغير الديمقراطية التي نرى فيها مقابلًا للشورى السياسية، يحبط عملها، بسبب ذلك نعتبر الجمع بين الاثنين هو من قبيل (المعلوم بالضرورة) من أمور الدنيا[1].

ويقول آخر؛ بعد دفاعه الشديد عن الديمقراطية: لا جرم إذا أن يقال إن الإسلام أبو الديمقراطية[2]، دون أن يشير إلى أمها التي ولدتها وحضنتها فالأم أصدق قيلاً.

ولشدة ولع بعض محبي الديمقراطية بهذا المصطلح العجيب فقد عمد إلى نحت مصطلح (الشوراقراطية) لتوأمة الشورى مع الديمقراطية، أملًا بتحسين لفظها عند المعارضين لها، فكأنما لا تستقيم حياة المسلمين إلا بـ(دمقرطة الإسلام) أي بالتوفيق بين الإسلام والديمقراطية[3].

---

(١) المستقبل الإسلامي العدد/ ١٦٦ كانون أول ١٩٩٢ ص/ ٤ وصاحب المقال الأستاذ فهمي هويدي.

(٢) انظر نقض الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية ص/ ٩١.

(٣) انظر مجلة العالم العدد ٣٨٠ أيار ١٩٩١م مقال د. فهمي الشناوي.



ويقول آخر محددًا مفهومه للشورىٰ بأن ما كان يسمىٰ منذ أربعة عشر قرنًا بالشورىٰ هو الذي يسمىٰ اليوم بالديمقراطية[1].

ويمكن أن يجاب على هذه الأقوال من عدة أوجه:

الأول: أن يقال: إذا كان المقصود من الديمقراطية أنها وسيلة للانتخاب (الديمقراطية الإجرائية) فقد مورس الانتخاب في دولة (أثينا) منذ القرن الرابع قبل الميلاد، كما أن الرسول ﷺ مارسه بنفسه - كما سبقت الإشارة إليه - حين طلب من الأنصار أن يختاروا (ينتخبوا) اثنىٰ عشر نقيبًا ليكونوا ممثلين عنهم في القضايا التي تستدعي التشاور واتخاذ القرارات.

كما مارسه المسلمون الأوائل في العصر الراشدي لاختيار خليفتهم، فكان يرشح هذا وذاك لمنصب الخلافة، ثم يعرض علىٰ ممثلي الأمة (كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار) الذين لو توافرت وسائل الاتصال الحديثة حينذاك، ورشحوا أنفسهم للانتخابات لفازوا بالكثرة الساحقة من غير ريب، فالإسلام يقر المعيار الإجرائي الذي تتوقف عليه شرعية القرارات، ويعزز هذا المعيار الإجرائي بمعيار مضموني، وهو عدم مخالفة هذه القرارات والتشريعات للقيم والأحكام التي أكد الإسلام علىٰ وجوب الالتزام بها وعدم مخالفتها، بحيث تكون كلمة الله هي العليا، وهذا يتحقق في بيئة المجتمعات الإسلامية.

أما في الأوساط غير المسلمة، فإن المسلم حينئذ يطالب ببذل ما في وسعه لتحقيق مصلحة للإسلام وللمسلمين، وفق ما تقرره الجالية الإسلامية وما ترىٰ فيه مصلحة وخيرًا للمسلمين في تلك البلاد.

الثاني: إن الشورىٰ شيء والديمقراطية شيء آخر حلًا ونسبًا، ولا يجوز بحال من الأحوال أن نخلط بينهما وذلك لسببين:

---

(١) قول الأستاذ خالد محمد خالد.

الأول: أن الشورىٰ نظام إسلامي، السيادة فيه لشرع الله، والحرية فيه لما هو مباح، وأما الديمقراطية فالسيادة فيها للشعب - كما سبق أن بينا - والحرية فيها يحددها عقل الإنسان وهواه الغريزي فحسب.

الثاني: أن الشورىٰ مظهر من مظاهر الحكم في الإسلام، تستهدف الوصول إلىٰ رجاحة القرار وفق الضوابط الشرعية، وذلك بحكم أن السلطان للأمة تولي عليها من تشاء، وأن علىٰ الحاكم أن يستشير ذوي الرأي والاختصاص في تسيير أمور الدولة.

وقد مارسها النبي ﷺ في حياته مع أصحابه عملًا بقول الله تعالىٰ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[2]، كما مارسها الخلفاء من بعده في مختلف العصور الإسلامية، فأحسن بعضهم وأساء آخرون.

أما الديمقراطية - لفظًا ومحتوىٰ - فهي نبتة غريبة عن أرض الإسلام، وقد جاء بها الاستعمار السياسي والثقافي لبلبلة عقول المسلمين، وليس أدل علىٰ ذلك من أنها لم تدخل ديار الإسلام، ولم يسمع بها المسلمون في حياتهم السياسية إلا بعد الغزو الثقافي السياسي الاستعماري الذي مارسه ومازال يمارسه أعداء الإسلام علىٰ المسلمين.

الثالث: نقول لهؤلاء: لماذا الإصرار علىٰ هذا المصطلح الأعجمي الغريب في الوقت الذي يرىٰ فيه علماء وفقهاء وباحثون إسلاميون آخرون أن الديمقراطية نظام حكم وضعي، لا شأن له بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد.

وبعبارة أخرىٰ ما الداعي أن نبحث عن وسيلة في مبادئ وضعية في الوقت الذي تقولون فيه أنها موجودة في ديننا بمصطلح الشورىٰ، فلماذا لا نبقي علىٰ اسمها القرآني، بعيدًا عن مصطلح أجنبي لا تقبله صيغ العربية بصرفها ونحوها.

---

(١) سورة الشورىٰ: آية/ ٣٨.

(٢) سورة آل عمران: آية/ ١٥٩.

الرابع: يجب أن لا تنس أن المرجعية العالمية للديمقراطية وتأويلاتها هي الدول الغربية، ومؤسساتها الدولية، المتسلطة علىٰ رقاب الشعوب الفقيرة المقهورة علىٰ أمرها في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا الجنوبية، والناهبة لخيراتها وثرواتها الطبيعية، ولا دور إطلاقا لعلماء المسلمين في قاموسها الدلالي والمفاهيمي(١).

لا بل إنه بمجرد ذكر الديمقراطية ينتقل ذهن السامع إلىٰ تلك الأنظمة، وبخاصة أمريكا وأوروبا، فهم صناعها وقادتها، والعاملون علىٰ ترويجها في العالم كله، وبالتالي أليس من الحكمة بمكان أن نستخدم مصطلحًا سياسيًا يستسيغه اللسان العربي وترتاح إليه نفس المسلم وهو الشورىٰ؟.

الخامس: إن المصطلح السياسي الفكري ليس كلمة جوفاء، إنه وعاء لغوي بمضمون؛ فيه الفكر، وفيه الإيحاء وفيه السلوك وفيه البواعث والحوافز، وقد اكتسبت هذه الخصائص وتلك السمات عبر سنين طويلة من المعاناة والممارسة، فالمصطلح ابن بيئته الفكرية والقيمية والمكانية والزمانية، وهذا بخلاف المصطلحات اللغوية التي لها طابع إداري تنظيمي فحسب، ويمكن تعريبها وتوظيفها والاستفادة منها عند الحاجة إليها، مثل كلمة (ديوان) الفارسية الأصل التي دخلت القاموس الإداري في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا هوية فكرية لها، ولا إيحاءات قيمية فيها، فهي كالوعاء الفارغ الذي يمكنك أن تملأه عسلًا، أو سمًا، بخلاف الديمقراطية بمضامينها الفكرية والسلوكية.





(١) انظر الديمقراطية في ميزان العقل والشرع ص/٩٠.

المطلب الثاني: الرافضون للديمقراطية شكلًا ومضمونًا[1]

إذا كان أنصار الديمقراطية من الإسلاميين يدافعون عنها بحجة أنها مجرد آليات بريئة ووسائل محايدة، ليس غير، فإن خصومها من الإسلاميين أيضًا يجدون فيها الكفر الخالص، والخروج عن الإسلام، فالداعية أبو الأعلىٰ المودودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستنكر وصف الحكومة الإسلامية بـ(الديمقراطية) معلنًا أن الحاكمية - أي السيادة - لله وحده؛ بمعنىٰ أنها مقيّدة بشرع الله[2]. ويشاركه في هذا الموقف العديد من العلماء، والباحثين، والجماعات الإسلامية. فسيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشدد النكير علىٰ أولئك اللذين يضعون علىٰ الإسلام أقنعة أخرىٰ، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات؛ كالاشتراكية والديمقراطية وما إليها، ظانين أنهم إنما يخدمون الإسلام بهذه التقدمة الذليلة، ويقول أيضًا: إن الإسلام هو الإسلام، والاشتراكية هي الاشتراكية، والديمقراطية هي الديمقراطية؛ وذلك منهج الله، لا عنوان له، ولا صفة له إلا العنوان الذي جعله الله له، والصفة التي وصفه بها[3].

كما أن المفكر الإسلامي محمد قطب يحذر من الانخداع بمظاهر الديمقراطية، حين يخلص إلىٰ القول: (في الإسلام يُعبد الله وحده دون شريك، وتحكّم شريعة الله، وفي الديمقراطية يُعبد غير الله وتحكّم شرائع البشر)[4].

إذا فالديمقراطية في نظر هؤلاء الباحثين والمفكرين الإسلاميين وكثير غيرهم[5]،

---

(١) المصدر نفسه ص/ ٢١٠.

(٢) مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٢، العدد٢ ص ١٤٧ (مقال د. أحمد صبحي).

(٣) في ظلال القرآن ٧/ ١٠٨٣، سيد قطب.

(٤) نقلاً عن: حليمة، عبد المنعم: حكم الإسلام في الديمقراطية، ص ٣١.

(٥) من هؤلاء:

د. ظاهر القاسمي دمشقي في كتابه نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ص/ ٣٨٨ والكاتب الإسلامي حافظ صالح - من فلسطين - في كتابه الديمقراطية وحكم الإسلام فيها ص/ ١٠١، والدكتور إسماعيل البدوي =

ليست شكلًا محايدًا، وإنما هي شكل ومضمون، ورؤية للفرد والمجتمع، وللقيم، وللعلاقات السياسية، والتربوية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها.



المطلب الثالث: المترددون بين القبول والرفض

أشير هنا إلىٰ بعض المفكرين والدعاة الإسلاميين الذين نقلت عنهم أقوال تعبِّر عن وعي شامل للإسلام بكلياته وجزئياته، ذلك النظام الرباني الكامل بذاته، والذي لا يحتاج إلىٰ جزئية من هنا أو رقعة من هناك. إلا أنه نقل عن هؤلاء الدعاة والمفكرين أيضًا أقوال أخرىٰ مفادها أن الديمقراطية من الإسلام، وهو قول مثير للجدل والاستغراب.

يقول أحد الفضلاء في مقال له: إن جوهر الديمقراطية من صميم الإسلام، فالإسلام قد سبق الديمقراطية بتقرير القواعد التي يقوم عليها جوهرها، ولكن ترك التفصيلات لاجتهاد المسلمين في أصول دينهم ومصالح دنياهم والمسلم الذي يدعو إلىٰ الديمقراطية إنما يدعو إليها باعتبارها شكلًا للحكم يجسد مبادئ الإسلام السياسية في اختيار الحاكم(١).

وفي مقال آخر له يقول فيه: لا يستحق حلٌّ شرف الانتساب إلىٰ الإسلام ما لم يكن مصدره الإسلام الخالص، لا الماركسية ولا المادية ولا الديمقراطية ولا الرأسمالية ولا الليبرالية وغيرها من مذاهب البشر، وفلسفات البشر أيًا كانوا، الحل الإسلامي إذا

=- أستاذ ورئيس قسم القانون العام بجامعة الأزهر - في كتابه نظام الحكم الإسلامي مقارنًا بالنظم السياسية المعاصرة ص/ ٤٨ وما بعدها والدكتور محمد يوسف موسىٰ في كتابه نظام الحكم في الإسلام ص/ ٢١٤ وغيرهم.

(١) مجلة النور عدد ٣٤ في ٩/ ١٤١٤هـ، ٣/ ١٩٩٤ مقال للدكتور يوسف القرضاوي.



هو الذي يطوع كل الأوضاع وكل الأنظمة لأحكام الإسلام وأنظمته، فالإسلام يعلو ولا يعلىٰ، يقود ولا يقاد، يوجه ولا يُتوجه، لأنه كلمة الله، وكلمة الله هي العليا[1].

ولا شك أن هذا الكلام ينم عن فهم عميق ودقيق لطبيعة رسالة الإسلام في مقابل المذاهب البشرية. فما هو مبرر هذا التردد بين قيم الإسلام الكبرىٰ ودعاوىٰ الديمقراطية الزائفة؟؟!

ويعدد مفكر إسلامي آخر مساوئ الديمقراطية ثم يعود إلىٰ القول: ولكن النظام الديمقراطي - علىٰ ما هو عليه في الغرب - يبقىٰ في غياب النظام الإسلامي أفضل الأنظمة التي تمخض عنها الفكر البشري، وبذلك يكون للآليات الديمقراطية - في إطار الإسلام - أن تنتج الديمقراطية الإسلامية كما أنتجت الديمقراطية المسيحية واليهودية والاشتراكية[2].

وهذا القول يوحي بأننا في غياب الحكم الإسلامي أمام خيارين إما أن نقبل بالحكم الدكتاتوري الشمولي، أو بالديمقراطية الغربية، ولا شك بأن الثاني أهون الشرين، وأخف الضررين، ولكن ذلك لا يعفينا من بيان أن الديمقراطية الغربية ليست هي البديل الطبيعي للمسلم، بل علىٰ المسلمين أن يسعوا إلىٰ إقامة حكم الإسلام، وإيجاد الأسباب التي تؤدي علىٰ هذه الغاية وإن طال الزمن.





(١) الحل الإسلامي فريضة وضرورة د. يوسف القرضاوي ص/ ٩٥.

(٢) الحريات العامة في الدولة الإسلامية: راشد الغنوشي ص/ ٨٨، وانظر التعددية السياسية رؤية إسلامية مجموعة من الكتاب (القاهرة مركز الإعلام العربي ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م) مقال للدكتور سليم العوا ص/ ٤٧.

المبحث السادس

موقف الإسلام من الديمقراطية

نعرض هنا موقف الإسلام من أبرز الأسس التي تقوم عليها الديمقراطية:

١- السيادة وحكم الشعب. ٢- رأي الأغلبية.

٣- التعددية. ٤- تداول السلطة.

المطلب الأول: السيادة وحكم الشعب

ذكرت سابقًا أن الديمقراطية نظام علماني يعبر عن وجهة نظر معينة للحياة السياسية مبنية علىٰ فصل الدين عن الحياة، واعتبار الأمة صاحبة السيادة في الدولة، أي أن للأمة الحق في تبني القوانين المنظمة للحياة استنادًا إلىٰ أن الأمة هي مصدر السلطات، أما السيادة في الإسلام علىٰ الحاكم والمحكوم فهي لشرع الله وليست للشعب، مع ضرورة التفريق بين السيادة والسلطة، فالسلطة للأمة، فهي التي تختار من يحكمها.

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في كتابه السياسة الشرعية أن الشريعة الإسلامية هي أعلىٰ مصدر للسلطة، وهو مع إقراره بالحاجة إلىٰ السلطة السياسية، وضرورة طاعتها إلا أنه يرىٰ مع ذلك أن تلك الطاعة ينبغي ألا تتم إلا إذا كانت السلطة منسجمة مع أوامر الشريعة، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[١].

وقد أشار الإمام الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) إلىٰ هذه الحقيقة من قبل، حين رأىٰ أن قانون الدولة الأعلىٰ هو قانون الشريعة، يجب أن يخضع له الحاكم والمحكوم معًا[٢].



(١) انظر السياسة الشرعية ص/ ١٨٥.

(٢) الأحكام السلطانية ص/ ٥٧.

وذلك لأن السيادة في الإسلام عهد بين الخالق والمخلوق، وهي أيضًا عهد بين الراعي والرعية من جهة، وبين الله تعالىٰ من جهة أخرىٰ، فالطاعة لله، والأمر له قال الله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(1)، فجعل طاعة الحاكم مرهونة بطاعته لله ولرسوله، أي أن الحكم لله، وعمل الحاكم هو تنفيذ حكم الشريعة الإسلامية، علىٰ جميع أفراد الأمة فقيرها وغنيها، شريفها ووضيعها.

وأدلة سيادة الشرع كثيرة ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾(2)، وقال أيضًا ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾(3).

وجعل السيادة للأمة يعني تنصيب الأمة مشرعًا لأنظمة الحياة، نيابة عن الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا عين ما حذرت منه الآيات القرآنية، وأكدت عليه(4).



المطلب الثاني: رأي الأغلبية

قلنا أن الديمقراطية ترىٰ في رأي الأغلبية ممثلًا للإرادة العامة للجماهير، وهو المعيار الصادق المعبر عن الحقيقة، وهو في الأصل نظام يأخذ بالعقيدة الرأسمالية العلمانية التي تقوم علىٰ الفصل التام بين الدين والدولة.

أما في النظام الإسلامي فإن السيادة للشرع أي أن الله تعالىٰ هو المشرع الحقيقي،

---

(١) سورة النساء آية/ ٥٩.

(٢) سورة النساء آية ٦٥.

(٣) سورة الشورىٰ آية/ ١٠، وللاستزادة انظر الديمقراطية في ميزان الشرع والعقل ص/ ٢٤٩.

(٤) يستثنىٰ من ذلك القوانين والتعليمات التي تنظم حياة الناس طالما أنها لا تخالف أحكام الشريعة أو مقاصدها العامة.



وكل تشريع يخالف شرع الله فهو مرفوض، وبالتالي فإن الأغلبية الصادرة عن مجلس الشعب، أو مجلس الأمة، لا تمثل الحق والعدل في نظر الإسلام دائمًا.

فلو قرر مجلس الأمة أو مجلس الشعب مثلًا - بناء علىٰ قاعدة الأغلبية - إباحة الربا، أو إسقاط حد السرقة، أو إباحة الفطر في رمضان، فالمسلم غير ملزم به لأنه مخالف للشرع، وكل ما خالف الشرع فهو باطل وإن كان يمثل رأي الأغلبية، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فالعبرة في نظر المسلم ليست في عدد المصوتين للقانون، بل العبرة بانبثاق التشريع من الشرع الإسلامي واتفاقه معه.

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1] (الظالمون) (الفاسقون).

ويقول الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ والإنسان متىٰ حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرًا مرتدًا باتفاق الفقهاء[2].

ونتساءل بعد هذا عن المسوغ العقلي لاعتبار الأغلبية دائمًا علىٰ حق مطلقًا، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]، ويقول أيضا ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[4].

وفي هذا المعنىٰ يتساءل الشاعر إيليا أبو ماضي مستخفًا بصدق معيار الأغلبية دائمًا بقوله:

لما سألت عن الحقيقة قيل لي ... الحق ما اتفق السواد عليه



(١) سورة المائدة آية/ ٤٤.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ٣/ ٢٦٧ وانظر نقض الجذور الفكرية للديمقراطية العربية ص/ ٣٩ - ٤٠.

(٣) سورة الأنعام آية/ ٦.

(٤) سورة يوسف آية/ ١٠٣.

فعجبت كيف ذبحت ثوري ضحىٰ والهند ساجدة هناك لديه[1]

وهذا من الفوارق الكبرىٰ بين الديمقراطية والإسلام.



المطلب الثالث: التعددية

جاء في الموسوعة البريطانية تعريف للتعددية في النظام الديمقراطي بأنها: الاستقلالية التي تحظىٰ بها جماعات معينة في إطار المجتمع مثل: الكنيسة، والنقابات المهنية، والاتحادات العمالية، والأقليات العرقية[2].

وتهدف التعددية في النظام الديمقراطية للحيلولة دون تمركز الحكم في يد فئة أو جماعة معينة، مما يساعد علىٰ تحقيق المشاركة للجميع وعدالة التوزيع.

ويميز بعض الدارسين بين ثلاثة أشكال من التعددية هي: التعددية الثقافية، والتعددية السياسية (تعدد القوىٰ المختلفة، وحقها في التعبير عن نفسها، والمشاركة في عملية صنع القرار)، ثم التعددية الدينية.

أما في الإسلام فإن الناظر في كتاب الله يجد التعددية الدينية في هذه الحياة أمرًا واقعًا لا خلاف حوله، والنصوص الصريحة تؤكد هذه الحقيقة.

قال الله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[3]، يقول المفسرون: كان الناس علىٰ ملة آدم

---

(١) ديوان الخمائل، إيليا أبو ماضي ص/ ٤٨.

(٢) الموسوعة السياسية عن الديمقراطية مصدر سابق ص/ ٢٥٤.

(٣) سورة البقرة آية/ ٢١٣

حتىٰ عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام ثم كان فيما بعد اختلاف بين اليهود والنصارىٰ، ثم ما كان من حسد الفريقين للمؤمنين بعد مجيء محمد ﷺ[1].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم نجد أن الإسلام قد منع الإكراه في إلزام أهل الكتاب في اعتناق هذا الدين، وهو ما يسمىٰ بالحرية الدينية قال تعالىٰ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[2].

وهكذا يظهر جليًا أن القرآن الكريم أقر تعدد الأديان علىٰ وجه هذه الأرض كما أقر بتعددها إن وجدت في ربوع الدولة الإسلامية، وهذا لا يمنع من دعوة أهل الكتاب للدخول في دين الله باللين والموعظة الحسنة. كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾[3].

ومن الثابت في الشرع أن لأهل الذمة الحق في إقامة شعائرهم الدينية داخل معابدهم الخاصة بهم بحرية تامة، بل لهم أن يتناولوا ما هو محرم في الإسلام كالخمر والخنزير في دورهم وفيما بينهم.

وعندما هاجر الرسول ﷺ إلىٰ المدينة كتب الصحيفة التي تضمنت تحديد العلاقة بين الطوائف، والقبائل، واليهود والموادعين، فترك لهم حريتهم الدينية فضلًا عن تأمينهم علىٰ أموالهم، وأنفسهم، ومواليهم، وبطانتهم، شريطة ألا يأثموا، ويظلموا، ويخونوا العهد، وبذلك أصبح اليهود في المدينة من رعايا الدولة الإسلامية.

ولعل خير شاهد علىٰ أن الإسلام أعطىٰ أتباع الديانات الأخرىٰ هذا الحق ما نجده



(١) انظر جامع البيان تفسير الطبري ٢/ ٤٤٥، ومختصر تفسير ابن كثير ١/ ١٨٧.

(٢) سورة البقرة: آية/ ٢٥٦.

(٣) سورة العنكبوت: آية/ ٤٦.

في مختلف البلاد الإسلامية من أمكنة عبادة لأهل الكتاب، حافظ عليها المسلمون طوال حكمهم خلال بضعة عشر قرنًا من الزمن، لكن من حق المسلمين عليهم ألا يصدر عنهم ما يخالف العهد.

حتىٰ إن تعدد الآراء والفئات داخل المجتمع المسلم ليس مستنكرًا، ومن ذلك اختلاف الآراء في المسائل الفقهية التي تعددت بسببه المذاهب وآراء المجتهدين وقد دافع شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الاختلاف، بل رآه رحمة وتوسعة علىٰ الأمة وله رسالة في ذلك دافع فيها عن آراء الأئمة المختلفة سماها (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، ولم يرفض رَحِمَهُ اللَّهُ الأحزاب لمجرد أنها أحزاب، بل جعل معيار القبول بها أو الرفض لها هو المقاصد والغايات التي تقام الأحزاب لأجلها، فإن كان اجتماعًا علىٰ ما أمر الله ورسوله فهو حزب محمود، وأما إذا كان اجتمعوا علىٰ زيادة أو نقص أو تعصب فهو اجتماع مذموم[1].

أما التعددية التي تحمل في طياتها فكرًا مناهضًا للعقيدة الإسلامية كالعلمانية، والإلحاد، والإباحية، و جماعات الدعوة إلىٰ المثلية، أو الشذوذ، وأمثالها، فإن الإسلام حريص كل الحرص علىٰ حماية أبنائه من هذه الدعوات الباطلة التي يطرحها أصحاب المبادئ المنحرفة لتكون بديلًا عن الإسلام ونظامه، وبالتالي فالدولة الإسلامية لا تسمح لمثل هذه الأحزاب ودعاتها لأن يكون لهم منابر يضلِّلون بها عقول الناس، ولكن في الوقت ذاته فلا مانع من الدخول في حوار مع أصحاب هذه الدعوات لإزالة الغشاوة عن عقولهم وقلوبهم وإعادتهم إلىٰ جادة الحق والصواب[2].

---

(١) انظر الرسائل والمسائل شيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ١٥٢-١٥٣ وانظر التعددية السياسية في الدولة الإسلامية د. صلاح الصاوي ص/ ١٣٢.

(٢) انظر الديمقراطية في ميزان العقل والشرع ص/ ٢٧١.

المطلب الرابع: تداول السلطة

ويقصد بتداول السلطة تبادل الأدوار بين الموالين والمعارضين، سواء كانوا علىٰ هيئة أحزاب تنظيمية، أم سياسيين محترفين، وهو ما يطلق عليه (اللعبة البرلمانية) في الأنظمة الديمقراطية، وهي لعبة غير شريفة الأهداف، إذ يتداول السلطة أصحاب المصالح السياسية، ومالكو المؤسسات الصناعية والتجارية، ومحتكرو المنابر الإعلامية (المسموعة والمرئية والمكتوبة) ورجال الأعمال والمال، بقصد تنفيذ أهدافهم، وتحقيق أغراضهم الخاصة، فهو أشبه ما يكون بنظام استبدادي بين هؤلاء اللاعبين وإن ادعوا زورًا أنهم يعملون لمصلحة الشعب بفئاته المختلفة.

ولا أحد ينكر غريزة حب السلطة والسيادة عند البشر، ولكننا ندعو إلىٰ تهذيبها وتحويلها من صراع علىٰ السلطة إلىٰ تنافس لخدمة البلاد والعباد، والمسؤولية في الإسلام أمانة لا تسند إلا لمن هو أهل لتحملها، وقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن تولية الضعفاء، فقد سأله أبو ذر الإمارة فنصحه بالابتعاد عنها.

فقد روىٰ أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال فضرب بيده علىٰ منكبي ثم قال: «**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدىٰ الذي عليه فيها**»[1]. وروىٰ أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «**يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**»[2].

فتداول السلطة مصطلح سياسي رأسمالي ديمقراطي لا يمت إلىٰ الإسلام بصلة، والموضوع المطروح - إسلاميًا - ليس تداول السلطة لينال أصحاب الوجاهة حظوظهم، إنما هو القدرة علىٰ قيادة الأمة، وتطبيق الشريعة الإسلامية، تحقيقًا للعدل بين الناس في المعاملات، والعقوبات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتبليغ دعوة الإسلام إلىٰ العالم. والله المستعان.

---

(١) رواه مسلم: في كتاب الإمارة باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

(٢) رواه البخاري في باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله، ومسلم باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها من كتاب الإمارة.



الخلاصة

الديمقراطية من المصطلحات التي شاعت في هذا العصر يدعيها اليسار واليمين والوسط والتيار العلماني وبعض رموز التيار الإسلامي، وتعني حكم الشعب عن طريق ممثلين له في مجلس ينتخبه الشعب يسمىٰ بمجلس الشعب، ولها مدلولان مشهوران، المدلول الإجرائي، والمدلول الأيديولوجي.

وقد أورد بعض المفكرين علىٰ تعريف الديمقراطية إشكاليات حقيقية عزت من غموض مضامينها، وحدود تطبيقاتها في حياة الشعوب.

بدأت فكرة الديمقراطية من عصر الدولة الإغريقية القديمة، ثم تطورت عبر الزمن حتىٰ أصبحت عنوانًا لنظام الحكم في الولايات المتحدة والأنظمة القائمة في أوروبا، والشرقية أخيرًا وبعض الدول الأخرىٰ في العالم.

وتقوم الديمقراطية المعاصرة علىٰ أساس فكرة العقد الاجتماعي التي اخترعها توماس هوبز الإنجليزي بين الحاكم والمحكوم. أما عن الدين في منظور الديمقراطية، فالديمقراطية نظام علماني يعتبر الدين علاقة شخصية بين الإنسان وربه، ولا علاقة له بالحياة، وأساس قاعدتها حيادية الدولة تجاه الدين، وسيادة الأمة.

والبديل عن الديمقراطية في الإسلام هي الشورىٰ التي تقوم علىٰ قاعدتين سيادة الشرع وسلطة الأمة، علىٰ خلاف بين علماء الأمة حول الإلزام بمبدأ الأخذ بالأكثرية.

ولكن تبقى الشورى في الإسلام أمرًا من أوامر الله تعالى، وقاعدة من قواعد الحكم في النظام الإسلامي.

وقد تباينت مواقف بعض الإسلاميين من الديمقراطية بين قابل لها بإطلاق وبين رافض لها بإطلاق وبين متردد بين القبول والرفض.

وللإسلام موقف واضح من الأسس التي قام عليها النظام الديمقراطية سواء في مسألة سيادة الشعب، أو حكم الأغلبية، أو التعددية، أو تداول السلطة. هذا الموقف يشي بأن الإسلام دين متفرد بنظامه السياسي، الذي ينطلق من وحي تشريع إلهي، يراعى فيه المصالح الحقيقية للإنسان، تشريع رباني من خالق البشر الذي يعلم ما يصلح الإنسان وما يفسده، فيه الحل الأمثل لمشاكل البشر، في حين أن الديمقراطية تنطلق من استحسان العقل في تحقيق مصالح الإنسان وحقوقه، مع ما يعتري هذا الاستحسان من هوى وزيف وتضليل ونقص.





الفصل السابع

العولمة

يشتمل الفصل على:

تمهيد.

المبحث الأول: حقيقة العولمة.

المبحث الثاني: ركائز العولمة.

المبحث الثالث: مجالات العولمة.

المبحث الرابع: آليات العولمة التنفيذية

المبحث الخامس: من يقف وراء العولمة؟

المبحث السادس: مواقف النخب من العولمة

المبحث السابع: العولمة إيجابيات وسلبيات

المبحث الثامن: كيف نستثمر العولمة؟

المبحث التاسع: مستقبل العولمة

الخلاصة.

مراجع مختارة.

تمهيد

مفهوم العولمة:

مصطلح العولمة حديث الظهور في الأدبيات السياسية والاقتصادية والثقافية، - وإن كان قديمًا بمضمونه - ولذلك لم يتبلور بعد كمفهوم، ولم يستقر بكيفية نهائية في قاموس المفاهيم العامة.

العولمة في اللغة:

العولمة مصدر علىٰ وزن فوعلة مشتق من كلمة العالم، كقولنا: قولبة، اشتقاقًا من كلمة قالب، والعولمة صيغة تفيد وجود فاعل يفعل، حسب صيغة الكلمة الإنجليزية، علىٰ خلاف صيغة الكلمة الفرنسية التي تعني العالمية[1].

والعولمة في الأصل ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Globalization) وبعضهم ترجمها بالكونية، أو الكوكبة، أو الشوملة - نسبة إلىٰ عالم شمال الكرة الأرضية -، إلا أنه في الآونة الأخيرة أشتهر بين الباحثين بمصطلح العولمة، وأصبح أكثر الترجمات شيوعًا بين أهل السياسة، والاقتصاد والإعلام.





(١) انظر العرب والعولمة ص/ ٦٢، مركز دراسات الوحدة العربية، وأيضًا العولمة جريمة تذويب الأصالة د. عبد الصبور شاهين - عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة - كتاب المعرفة عدد/ ٤٨.

المبحث الأول

حقيقة العولمة

المطلب الأول: تنوع العولمات

كثرت الأقوال حول اصطلاح العولمة، حتىٰ إنك لا تجد تعريفًا جامعًا مانعًا يحوي جميع التعريفات، وبسبب اختلاف وجهة الباحثين نجد للاقتصاديين تعريفًا، وللسياسيين، تعريفًا وللاجتماعيين تعريفًا، ولأهل الثقافة والفكر تعريفًا آخر، فنحن أمام تعريفات مختلفة يمكن أن نعرض نماذج لهذه التعريفات علىٰ سبيل الاختصار لتتضح الصورة أكثر:

١- التعريف من منظور اقتصادي: يرىٰ كثير من الباحثين أن العولمة اتجاه لفرض مبادئ الرأسمالية، والاقتصاد الحر، يقول صاحبا كتاب (فخ العولمة): العولمة انصهار العدد الهائل من الاقتصاديات القروية، والإقليمية، والوطنية، في اقتصاد عالمي شمولي واحد، ولا مكان فيه للخاملين، بل يقوده أولئك الذين يقدرون علىٰ مواجهة عواصف المنافسة الهوجاء[1].

٢- التعريف من منظور سياسي: يذهب عدد غير قليل من المفكرين والباحثين إلىٰ أن العولمة ما هي إلا تفعيل لنظريات وفلسفات سياسية بحتة تتخذ من الاقتصاد وسيلة وذريعة لتحقيق سيادتها العالمية.



يقول أحد المفكرين: العولمة استقطاب النشاط السياسي والاقتصادي في

(١) هانس، وهارألد شومان ص/ ٢٧.

العالم حول إدارة مركز واحد من مراكز القوة في العالم[1]. ويؤكد هذا المعنىٰ المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما صاحب كتاب (نهاية التاريخ) معبرًا عن هذه الحقيقة فيقول: إن نهاية الحرب الباردة تمثل المحصلة النهائية للمعركة الأيديولوجية التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية وهي الحقبة التي تم فيها هيمنة التكنولوجيا الأمريكية.

ولهذا ينظر كثير من الباحثين إلىٰ حقيقة وأهداف وطرائق العولمة علىٰ أنها الاستعمار بلون جديد، وباسم جديد، وهي بعبارة صريحة أمركة العالم[2].

٣- التعريف من منظور اجتماعي وحضاري: يرىٰ أصحاب هذا الاتجاه أن العولمة تهدف إلىٰ إيجاد حضارة جديدة مؤثرة في سلوكيات الناس، وأنماط حياتهم. وعرفوها بأنها اجتياح الشمال للجنوب... اجتياح الحضارة الغربية - ممثلة في النموذج الأمريكي - للحضارات الأخرىٰ، وهي التطبيق العملي لشعار نهاية التاريخ[3].

٤- التعريف من منظور ثقافي: يرىٰ هؤلاء أن العولمة محاولة إقصاء متعمد للثقافات المحلية - أو تقليص الخصوصي كما يسميها د. محمد عابد الجابري - واستبدالها بثقافة مكتسحة هي ثقافة العولمة، وجاء في تعريفهم: أن الكونية الثقافية التي يدعو لها الغرب هي تلك التي لا تقفز بالشعوب إلىٰ ممارسة دور متكافئ في حدود هذه الثقافة، وإنما ستجد تلك الشعوب نفسها تابعة أكثر لمركزية الغرب، لأنه روح تلك الثقافة الكونية[4].

---

(١) د. عبد الصبور شاهين، المصدر السابق ص/ ٣٧.

(٢) المسلمون والعولمة د. يوسف القرضاوي ص/ ٩٠ وهو ما يذهب إليه الدكتور محمد عابد الجابري أيضًا.

(٣) مخاطر العولمة علىٰ الهوية الثقافية د. محمد عمارة ص/ ١٤.



(٤) العرب والغرب، إدريس هاني ص/ ١٥٨ ط١/ دار الاتحاد بيروت، وانظر دور التربية الإسلامية في مواجهة التحديات الثقافية للعولمة ص/ ١٢ وما بعدها، صلاح الحارثي وهي رسالة علمية قيمة قدمها الباحث إلىٰ جامعة أم القرىٰ بمكة المكرمة لنيل درجة الماجستير ط١، مكتبة السوادي جدة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

إذن فنحن لسنا أمام عولمة واحدة، بل عولمات ذات آفاق واسعة، ولعل من أشمل التعريفات - في نظري - تعريف إسماعيل صبري يقول فيه: هي التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والسياسة والثقافة والسلوك، دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة، أو انتماء إلىٰ وطن محدد، أو لدولة معينة، ودون الحاجة إلىٰ إجراءات حكومية[1].

وبعد استعراض هذه التعريفات يمكن القول بأن العولمة، إيديولوجية الحضارة الغربية من فكر، وثقافة، واقتصاد، وسياسة، للسيطرة علىٰ العالم أجمع، باستخدام الوسائل الإعلامية، والشركات الرأسمالية الكبرىٰ لتطبيق هذه الحضارة وتعميمها علىٰ العالم، وتهدف في نهاية الأمر إلىٰ هيمنة الفكر والثقافة الغربية علىٰ الثقافات الأخرىٰ بدعوىٰ التعاون والتواصل، وإزالة الحدود والمسافات بين الشعوب، ومن الطبيعي أن الذي يقود العولمة ويوجهها إنما هم الأقوياء الذي يملكون الإعلام والاقتصاد، وهذا يجعل العولمة أداة بيد طرف دون طرف، فهي بكل صورها تكريس لهيمنة الأقوياء علىٰ الضعفاء اقتصاديًا، وسياسيًا، وثقافيًا، من خلال اجتياحها للثقافات الأخرىٰ ومحوها كاملًا. وإذا كان لهذه الثقافات من بقاء فسيكون بقاء فلكلوريًا لمجرد الاستمتاع، وليس لتنمية وإخصاب الذات الإنسانية.



وعلىٰ هذا فإن العولمة - في الحقيقة - لا تمثل تحديًا فحسب، بل غزوًا شاملا بأساليب ووسائل متعددة. وإليك مزيدًا من توضيح هذا المصطلح بمقارنته بغيره من المصطلحات الأخرىٰ.



(١) العولمة عالم ثالث علىٰ أبواب قرن جديد، عمر عبد الكريم، المنار الجديد، العدد / الثالث.

المطلب الثاني: العولمة والعالمية

إن المقابلة بين العالمية والعولمة، وتحديد الفرق بينهما فيه شيء من الصعوبة، وخصوصًا أن كلمة العولمة مأخوذة أصلًا من العالم، ولهذا نجد بعض المفكرين يذهبون إلىٰ أن العولمة والعالمية تعني معنىً واحدًا، ولا فرق بينهما، وهذا قول تعوزه الدقة، فإن هذين المصطلحين يختلفان في المعنىٰ، فهما في الحقيقة مقابلة بين الخير والشر، وبين الإصلاح والإفساد.

فالعالمية انفتاح علىٰ العالم، واحتكاك بالثقافات العالمية مع الاحتفاظ بخصوصية الأمة الأخرىٰ، وفكرها، وثقافتها، وقيمها، ومبادئها. فالعالمية إثراء للفكر، وتبادل للمعرفة مع الاعتراف المتبادل بالآخر، دون إلزامه بالتنازل عن خصوصيته، أو فقدان هويته.

إذن فالعالمية لا تعني الهيمنة الاقتصادية، كما لا تعني في الوقت نفسه الهيمنة الثقافية، وإنما تعني التنوع، وانفتاح الثقافة الخاصة علىٰ الثقافات الأخرىٰ، إنها تعني في الحقيقة التعارف وفقًا للمبدأ القرآني الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[1].

بين عالمية الإسلام والعولمة:

ويظهر الفارق بين العولمة والعالمية من خلال المقارنة بين الإسلام العالمي وبين دعوىٰ العولمة.

فالعالمية خاصية من خصائص الإسلام، فهو دين يخاطب جميع البشر، علىٰ اختلاف الزمان والمكان، لا يعرف التفريق بين الناس علىٰ أساس الإقليمية أو القومية أو الجنس، جاء لجميع الفئات والطبقات، فلا تحده حدود، ولهذا تجد أن الخطاب القرآني

(١) سورة الحجرات: آية/ ١٣.

موجه إلىٰ الناس جميعًا علىٰ سواء، بندائه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2]، في أكثر من مائتي آية. ويقول الله تعالىٰ مخاطبًا المصطفىٰ ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[3]. فعالمية الإسلام وإن اشتبكت مع (عالمية العولمة) إلا أن الإسلام له رؤيته الخاصة للعالمية، وبذلك ينفصل عن إشكالية العولمة، فهو بعكس طروحاتها وأهدافها.

فالعولمة تعني الانسلاخ عن قيم ومبادئ وتقاليد وعادات الأمة وإلغاء شخصيتها وكيانها وذوبانها في الآخر، وهي تفعل ذلك من خلال رغبات الأفراد والجماعات بحيث تقضي علىٰ الخصوصيات تدريجيًا، من غير صراع أيديولوجي، أما رسالة الإسلام فهي دعوة تعارف وتعاون، وإعمار وإصلاح، ومجال للتبادل والتداول حتىٰ يكون العالم كله سوقًا للعمل والبناء. مستخدمة أسلوب الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة في تشكيل القناعة عند الآخرين ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[4].

فإذا لم يُجْدِ الحوار والجدال فحكم الإسلام عندئذ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾[5]، وبذا يتعزز المستقبل في العالم لصالح مبادئ الإسلام، لأنه يقود العالم كله إلىٰ الخلاص الحقيقي، بعد فشل المشروع الرأسمالي والشيوعي، وقصور العقائد الدينية الأخرىٰ عن تدارك إصلاح أحوال الأمم، وتدبير الحلول للجماعات الإنسانية، ومشكلات الاجتماع والاقتصاد، وما يتفرع عنها من مشكلات الأخلاق والآداب.

---

(١) سورة الأعراف: آية/ ١٥٨.

(٢) سورة النساء: آية/ ١.

(٣) سورة الأنبياء: آية/ ١٠٧.

(٤) سورة النحل: آية/ ١٢٥.

(٥) سورة البقرة: آية/ ٢٥٦.



المطلب الثالث: هل العولمة ظاهرة جديدة؟

لابد من الإشارة هنا إلىٰ أن المحللين والباحثين والمشتغلين بالعولمة وقضاياها فهمًا وتوصيفًا، لم يتفقوا علىٰ بداية محدودة لتاريخ نشأتها.

١- ففريق يرىٰ أنها ظاهرة قديمة قدم التاريخ وذلك عندما تتصدر حضارة ما باقي الحضارات وتقود العالم، وإن اختلفت تسميتها الظاهرة من حقبة تاريخية إلىٰ أخرىٰ، إلا أن الجديد فيها هو انتقال مركزها من بقعة جغرافية إلىٰ غيرها.

ويذهب هذا الفريق إلىٰ أن العولمة بمفهومها المتعلق بالسيطرة وبسط النفوذ العسكري والسياسي والاقتصادي والحضاري ليست وليدة اليوم، بل هي عملية تاريخية قديمة مرت عبر الزمن بمراحل، فقد سجل التاريخ مساعي الإمبراطورية الرومانية للسيطرة علىٰ العالم إبان قوتها حتىٰ نهاية القرن الثالث الميلادي.

وبدأت ظاهرة العولمة تظهر من جديد مع مطلع القرن الخامس عشر زمن النهضة الأوروبية الحديثة، حيث نشأت المجتمعات القومية، ثم ببزوغ ظاهرة الدولة القومية، وحلولها محل النظام الإقطاعي - الذي كان سائدًا في القرون الوسطىٰ - مما زاد في توسيع نطاق السوق ليشمل الأمة بأسرها، بعد أن كان محدودًا بحدود المقاطعة.

وقد سجل التاريخ ما قامت به الإمبراطورية البريطانية العظمىٰ (الإمبراطورية التي لا تغيب عن مستعمراتها الشمس) من بسط سيطرتها ونفوذها العسكري والاقتصادي حتىٰ أواخر القرن الثامن عشر.

وفي العقد الثاني من القرن العشرين وجد الاتحاد السوفيتي رغبة شديدة في بسط هيمنته علىٰ العالم من خلال تصدير مذهبه الماركسي الشيوعي بفلسفته الديالكتيكية مقترنة بما سمىٰ بالاشتراكية العلمية. إلىٰ أن جاء العصر الأمريكي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي صاحب النظرية الشيوعية، وانتهاء الحرب الباردة.

٢- وفريق آخر يرىٰ أن العولمة وليدة القرن العشرين مع ظهور ما سمي بالنظام العالمي الجديد، وأصحاب هذا الرأي يختلفون بدورهم في تحديد بدايتها.

أ- فمن الباحثين من يعود بالظاهرة إلىٰ مؤتمر (يالطة) المنعقد من ٤-١١-١٩٤٥م وما ترتب عليه من نتائج أبرزها ما سمي بالحرب الباردة التي انتهت بانهيار المعسكر الاشتراكي.

ب- ويرىٰ بعضهم أن النظام العالمي الجديد بعولمته بدأ في سنة ١٩٨٥م بعد وصول ميخائيل غورباتشوف إلىٰ قمة السلطة في الاتحاد السوفيتي، وبيانه للناس عن نظريته في الاقتصاد والسياسة، عندما توجه بخطابه مباشرة إلىٰ شعوب الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة الأمريكية، وإلىٰ شعوب البلدان الأخرىٰ... قائلًا: علينا أن نتلافىٰ، علينا أن نحل مشاكلنا بروح التعاون لا بروح العداء... إننا مع السلام دون الحرب، ودون سباق التسلح، ونحن مع عالم خال من الأسلحة النووية، إن انفجار حرب عالمية لن يكون فيها منتصر، أو مهزوم، كما لن يكون هناك سالمون...[1]

ج- ويذهب آخرون إلىٰ أن أول من أفصح بوضوح عن نظام عالمي جديد معولم تقوده أمريكا وترعاه هو (جورج بوش الأب) في حديث له عام ١٩٩٢م عندما قال: لقد أنقذنا أوروبا، وتغلبنا علىٰ الشلل، ووصلنا إلىٰ القمر، وأضأنا العالم بثقافتنا، والآن ونحن علىٰ مشارف قرن جديد، نسأل: لمن سينسب هذا العصر؟ إنني أؤكد أنه سيكون عصرًا أمريكيًا آخر[2].

في إشارة صريحة إلىٰ هيمنة نظام عالمي جديد اقتصادي وسياسي وعسكري



(١) العولمة النيوليبرالية وخيارات المستقبل، د. حسين عبدالهادي، ص/ ٦٦، ٧٢ مركز الراية ط١، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٤م، جدة، السعودية.

(٢) ما الجديد في النظام الدولي؟ افتتاحية مجلة مستقبل العالم الإسلامي السنة الثانية عدد ٨ / ص ٣، سنة ١٩٩٢م، نقلًا عن المصدر السابق ونفس الصفحة.

وأمني وثقافي... تهيمن عليه أمريكا تحديدًا. وهناك أقوال أخرىٰ اكتفيت بذكر بعضها اختصارًا.

وعند تأمل هذه الأقوال في تحديد نشأة العولمة لا نجد كبير اختلاف بينها، فإن رغبة السيطرة العسكرية والاقتصادية لدىٰ الأمم القوية علىٰ غيرها من الشعوب له شواهد تاريخية كثيرة، ولكن هذه الرغبة في طورها الجديد أصبحت أكثر فاعلية وتأثيرًا بسبب قوة آلياتها وقيادتها وتوجيه مسارها.

إن معظم الكتاب يجمعون علىٰ أن هناك أربعة عناصر أساسية يعتقدون أنها أدت إلىٰ بروز العولمة في ثوبها الجديد وهي:

١- تحرير التجارة الدولية.

٢- تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة.

٣- الثورة المعرفية.

٤- تعاظم دور الشركات متعددة الجنسيات، وهذا دفع (توماس فريد مان) إلىٰ وصف العولمة الجديدة بقوله: أصبحت هي النظام الدولي المسيطر في نهاية القرن العشرين، وحلت محل نظام الحرب الباردة، وهي الآن تشكل السياسات الداخلية، والعلاقات الدولية للجميع[1].





(١) السيارة ليكساس وشجرة الزيتون ص/ ١٧.

المبحث الثاني

ركائز العولمة

بعد أن تعرفنا علىٰ مفهوم العولمة، وظروف نشأتها، ومضامينها، فلا نجد صعوبة في تحديد ركائزها المعاصرة وهي كمال يلي:

١- هيمنة النظام الرأسمالي:

إن تغلب الرأسمالية علىٰ الشيوعية جعلها تعمم مبادئها علىٰ كل المجتمعات، فأصبحت قيم الوحدة، والتجارة الحرة، والانفتاح الاقتصادي، والتبادل التجاري، وانتقال السلع، ورؤوس الأموال، وتقنيات الإنتاج، والأشخاص، والمعلومات، هي القيم الرائجة المفروضة من قبل مؤسسات البنك الدولي، ومؤسسة النقد الدولي وغيرها من المؤسسات التابعة للأمم المتحدة، وعن طريق الاتفاقات العالمية التي تقرها تلك المؤسسات كاتفاقية «الجات» وغيرها.

٢- القطب الواحد:

ونعني بالقطب الواحد تفرد أمريكا بقيادة العالم منذ سقوط الاتحاد السوفيتي، وتفكيك منظومته الدولية، ومن الجدير بالذكر أنه لم تبلغ إمبراطورية في التاريخ ما بلغت الولايات المتحدة بقوتها العسكرية والاقتصادية، مما جعل انفراد أمريكا يمثل خطرًا محدقًا علىٰ الآخرين في المجالات السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية... الخ.

٣- ثورة المعلومات:

مرت البشرية بعدة ثورات علمية لعبت دورًا مهمًا في دفع عجلة الحضارة

البشرية؛ كثورة البخار، والكهرباء، والذرة. وكان آخرها الثورة العلمية والتكنولوجية والخاصة بالتطورات المذهلة في عالم الكمبيوتر، أما المجال الآخر في هذه الثورة فهو التطورات المثيرة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والتي تتيح للأفراد، والدول، والمجتمعات، الارتباط بعدد لا يحصىٰ من الوسائل التي تتراوح بين الكابلات الضوئية، والمحطات الفضائية، والإذاعية التي تبث برامجها المختلفة في جميع أرجاء المعمورة، بالإضافة إلىٰ أجهزة الكمبيوتر، والبريد الإلكتروني، وشبكات الإنترنت التي تربط العالم بتكاليف أقل، وبوضوح أكثر علىٰ مدار الساعة، وقد تحولت هذه التكنولوجيا إلىٰ أهم مصدر من مصادر الثروة، أو قوة من القوىٰ الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، الكاسحة في عالم اليوم.



المبحث الثالث

مجالات العولمة

تظهر العولمة في مجالات عديدة من مجالات الحياة، والتي تشكل شبكة العلاقات الدولية المعاصرة، وأهم هذه المجالات:

١- المجال الاقتصادي: وترتكز العولمة فيه علىٰ فكرة وحدة السوق، وإزالة العوائق أمام حركة رأس المال، وحرية الاقتصاد، واتخاذ الدولار معيارًا للنقد، وتحول المجتمعات إلىٰ مجتمعات منتجة هي مجتمعات الدول الصناعية، ومجتمعات مستهلكة هي مجتمعات الدول الأخرىٰ.

٢- المجال الاجتماعي: وذلك بتنميط العالم وفق قيم المجتمعات الغربية، (وبالذات أمريكا) وذلك بنقل قيم المجتمع الغربي الأمريكي خصوصًا ليكون المثال والقدوة من خلال الوسائل التالية:

أ- المؤتمرات الدولية في مجال المرأة، والشباب، والأطفال، والسكان، والتنمية البشرية، وما تخرج به من توصيات ملزمة، أو مرفقة بمطالبة ملحة، كنموذج للحياة الاجتماعية الغربية[١].

ب- نقل السلوكيات والعادات الغربية من خلال المواد الإعلامية في القنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت، كالاحتفال بعيد الحب Valentine، وهي عادة غربية ذات

---

(١) انظر وثيقة مؤتمر السكان والتنمية د. الحسيني سليمان جاد ص/ ٥٥، كتاب الأمة عدد/ ٥٣ جماد الأول ١٤١٧ هـ، وانظر العدوان على المرأة في المؤتمرات الدولية ص/ ١٤٩.

أصول دينية وثنية، وأخلاقية غربية، وقد بدأ ينتشر الاحتفال بهذا اليوم من كل سنة حتىٰ في المجتمعات المحافظة كدول الخليج.

٣- المجال الفكري والثقافي: وذلك بترويج الإيدلوجيات الفكرية الغربية، وفرضها في الواقع من خلال الضغوط السياسية، والإعلامية، والاقتصادية، والعسكرية أيضًا، وذلك في مجالات عدة كحقوق الإنسان، والديمقراطية، والليبرالية، وحقوق الأقليات، وحرية الرأي وغيرها.

٤- المجال السياسي: وذلك من خلال استخدام الأمم المتحدة بعد الهيمنة عليها، وعلىٰ مؤسساتها المؤثرة في السياسة الدولية كمجلس الأمن الذي تعتبر قراراته ملزمة عالميًا (وفق الرغبة الأمريكية) واستخدام حق النقض (الفيتو) المجحف عند الضرورة، أو التلويح باستخدامه لمنع أي قرار لا يريده الغرب، وخاصة أمريكا.

ولعل ما يجري الآن من تعسف أمريكي وبدعم بريطاني، ومجاملة من بقية الأعضاء الدائمين في استعمال هذه المنظمة العالمية لتكريس هيمنة أمريكا فيما يخص العالم الإسلامي؛ كقضية فلسطين، والعراق، والصومال وغيرها دليل علىٰ ذلك، بينما يختلف الموقف تمامًا إذا كان القرار يخص العدو الصهيوني المحتل لفلسطين.

٥- المجال العسكري: وذلك من خلال الأحلاف، والمعاهدات العسكرية، التي تعقدها الدول الكبرىٰ، وبالذات أمريكا مع الدول الصغيرة، وكذلك من خلال حلف الأطلسي الذي حددت أهدافه تجاه الجنوب (الإسلام) بعد أن كان تجاه الشرق قبل انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي، وانحلال حلف وارسو.





المبحث الرابع

آليات العولمة التنفيذية

إن العولمة كنظام دولي جديد يسعىٰ إلىٰ دمج دول العالم في عالم واحد من خلال نظام اقتصادي وسياسي واجتماعي وثقافي - كما سبق - وتوحُّد دول العالم يستلزم وجود آليات تنفيذية تحقق هذا الهدف الاستراتيجي الذي تسعىٰ إليه القوىٰ العظمىٰ، وقد بدأ التفكير جديًا بإيجاد هذه الآليات قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وذلك عندما بدأ الحلفاء التفكير في وضع أسس لنظام دولي جديد يتفق مع تصوراتهم لعالم ما بعد الحرب[1]، ومن هذه الآليات:

١- هيئة الأمم المتحدة:

أنشئت هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م وهي تضطلع بالمفهوم السياسي للعولمة، وهو السعي الدؤوب لدىٰ الأعضاء لتقبل فكرة العولمة، والعمل علىٰ تهيئة الشعوب نفسيًا وذهنيًا للانخراط في فكرة الحكومة العالمية، وقد نجحت الأمم المتحدة وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في ترسيخ مبادئ العولمة السياسية، وصارت المنظمة باسم (الشرعية الدولية) تتدخل بشكل سافر في الشؤون الداخلية تدخلًا مدعومًا بالقوة السياسية والعسكرية، فتصدر القرارات من مجلس الأمن (التابع للأمم المتحدة)، بحصار هذا النظام، أو عزله، أو إسقاطه باسم مخالفة الشرعية الدولية.

---

(١) العولمة مقدمة في فكر واقتصاد وإدارة عصر اللادولة د. محسن أحمد الخضير ص/ ٧. وانظر دور التربية الإسلامية في مواجهة التحديات الثقافية للعولمة ص/ ٤٤.

وباسم حقوق الإنسان (الصادر عن الأمم المتحدة) ودعوىٰ حمايتها أعطت المنظمة لنفسها الحق في تغيير تشريعات ودساتير وطنية، أو قومية خاصة بتلك الدول.

وتحت شعار (الديمقراطية) أعطت الدول الكبرىٰ لنفسها الحق في التدخل في شؤون الأنظمة الداخلية للدول لتفرض أنماطًا سياسية، وأنظمة تحقق أغراضها وأهدافها.

شعارات براقة تبهر المخدوعين؛ شرعية دولية، حقوق الإنسان، الديمقراطية، الأمن والسلم الدوليين، حماية الحرية والعدالة والمساواة.

وعند تتبع تطبيق هذه الشعارات علىٰ الواقع من خلال الأحكام التي تصدر عن الأمم المتحدة، أو مجلس الأمن باتفاق الدول الخمس الأعضاء للأمم المتحدة يتكشف مدىٰ الزيف والظلم الذي تمارس ضد الدول الأخرىٰ ولاسيما ما يخص العالم الإسلامي، فالكيل بمكيالين، أو بمكاييل مختلفة شيء طبيعي وفق ما تراه المنظمة وتقرره، وقد كشف الواقع زيف هذه الشعارات من خلال الممارسات الظالمة ولاسيما مع العالم الإسلامي كما يلاحظ ويشاهد في موقف الأمم المتحدة من الصراع بين العرب وإسرائيل.

إن هذه الشعارات؛ شرعية دولية، حقوق الإنسان، الديمقراطية.... يراد منها تخصيص المنظمة الدولية بحق التشريع، وفي ذلك تحدٍ صارخ لعقيدة الأمة المسلمة التي تعتبر حق التشريع والحكم لله رب العالمين، وليس لغيره، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾[1].

٢- البنك الدولي وصندوق النقد الدولي:

أنشئ البنك الدولي عام ١٩٤٥م كمنظمة دولية، وكان الدافع لإنشائه إعادة بناء

---

(١) سورة يوسف آية/ ٤٠.

اقتصاد أوروبا المتهدم جراء الحرب العالمية الثانية، أما مصدر تمويله فهو الاقتراض من أسواق المال الدولية، ثم توسعت أنشطة البنك لتشمل دول العالم الثالث.

ومن سياسات البنك الدولي رفع الدول يدها عن تغذية القطاعات الاجتماعية، أو الإنفاق عليها، والتوجه نحو الخصخصة، ومن آثار ذلك علىٰ الشعوب دخول الشركات الكبرىٰ للاستثمار في القطاعات التي تمس حياة الشعوب (الفقيرة) مباشرة مثل: التعليم والصحة، والهاتف وسائر الخدمات الهامة.

وكان من تداعيات ذلك ازدياد عدد العاطلين عن العمل، وانتشار الفقر، وزيادة قروض الدول من البنك الدولي لدعم مشاريعها التنموية، وما يترتب علىٰ هذا الإقراض من تحكم في الدول المقترضة وإملاء شروطه عليها لتسير وفق خطط وبرنامج نظام العولمة.

وبذلك أصبح كثير من زعماء الدول وشعوبهم يقعون تحت وطأة سيطرة أصحاب الشركات المتعددة الجنسيات، والمؤسسات الاستثمارية، وقوىٰ السوق الفاعلة، أما صندوق النقد الدولي فقد أنشئ أساسًا بهدف دعم استقرار أسعار الصرف، والمحافظة علىٰ التدابير المنظمة للصرف بين الدول الأعضاء[1]، وكان مجال اهتمامه الدول المتقدمة، علىٰ عكس البنك الدولي الذي كان اهتمامه منصبًا علىٰ الدول الفقيرة.

ولكن ومنذ عقد الثمانينات الميلادي التقىٰ البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في مهمة واحدة تتمثل في تحويل الاقتصاديات الاشتراكية إلىٰ اقتصاديات السوق في التسعينيات[2]، وذلك بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتفكك الكتلة الشرقية.



---

(١) العولمة مقدمة في فكر واقتصاد وإدارة عصر اللادولة، محسن أحمد الخضيري ص/ ٥٧.

(٢) النظام الاقتصادي الدولي المعاصر، حازم الببلاوي ص/ ٥٢.

٣- **منظمة التجارة العالمية:**

تأسست منظمة التجارة العالمية عام ١٩٤٦ لتكون الضلع الثالث للنظام الاقتصادي الجديد، الذي بدأ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وأسفر عن إنشاء صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير.

لكن المنظمة لم يبدأ نشاطها الفعلي إلا في شهر يناير ١٩٩٤م بسبب الخلاف بين المعسكرين الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي، والغربي بزعامة الولايات المتحدة، حيث تم الاتفاق علىٰ قيام منظمة التجارة العالمية (الجات) علىٰ أنها منظمة ذات صبغة قانونية مستقلة لها كافة الحقوق والامتيازات الممنوحة لوكالات الأمم المتحدة[١].

أما عن مدىٰ تأثيرها في الوضع الاقتصادي العالمي المعولم فهي (أخطر المؤسسات المتعلقة بالعولمة باعتبارها المشرفة علىٰ نظام التجارة في النظام العالمي الجديد)[٢]، وهي تتمتع بسلطات تفوق سلطات الحكومات، من خلال إلغاء القوانين الحكومية، والاتفاقات الدولية. وهي تسعىٰ لفتح الحدود، وتحجيم دور الدولة في التحكم في عجلة الاقتصاد الوطني، وإقامة العديد من الأسواق الدولية، ومن ثَمَّ نقل سلطة التحكم في الموارد وأسواق التقانة من الناس، والمؤسسات المحلية، والحكومات، إلىٰ أسواق المال، والشركات متعددة الجنسيات، إذ توضع هذه المؤسسات بعيدًا عن إمكانية المساءلة العالمية[٣].

٤- **منظمة اليونسكو:**

هي إحدىٰ المنظمات التابعة لهيئة الأمم المتحدة ومقرها باريس، تم إنشاؤها عام ١٩٤٦م، وهي تسعىٰ لإيجاد رؤية ثقافية واحدة بين دول العالم، وإيجاد منبر دولي عالمي،

---

(١) معركة سياتل حرب من أجل الهيمنة، سمير صارم ص/ ٢٥.

(٢) العولمة مقدمة في فكر واقتصاد وإدارة عصر اللادولة د. محسن أحمد الخضيري ص/ ٧٤.

(٣) معركة سياتل حرب من أجل الهيمنة، سمير صارم ص/ ٢٠.

يكون جزءًا من نظام التعاون الدولي المعاصر في مسائل التعليم والعلوم والثقافة[1].

٥- الشركات متعددة الجنسيات:

ولها أسماء متعددة: الشركات العملاقة، شركات متعددة الجنسيات، شركات عابرة للقارات... الخ وهي تمثل الذراع الاقتصادي للعولمة وهي متواجدة في كافة أنحاء العالم.

وهي شركات ربحية، ويذهب بعض المحللين إلىٰ أن أصحاب هذه الشركات العملاقة هم المحركون والمسيرون لظاهرة العولمة.

ومن سمات هذه الشركات:

١- تعدد أنشطتها لتعويض خسائر محتملة في نشاط معين.

٢- قدرتها علىٰ الهيمنة واحتكار السوق لضمان عدم وجود منافس.

٣- استغلال انفتاح الحدود، ووجود الأسواق الدولية، وتخفيض الجمارك.

٤- محاولة الاندماج فيما بينها، وهذه يؤثر سلبًا علىٰ المستثمرين الصغار، حيث يجعلهم عرضة للابتلاع من قبل الأقوياء.

٥- فرض نفسها بسبب قوة تأثيرها علىٰ الدول، بحيث لا تأبه بالحواجز والسياسات، والتشريعات للدول الوطنية.

وفي الحقيقة أن هذه الشركات قد أحدثت تبدلًا جذريًا في آليات السيطرة، فاقتحمت سيادة الدولة غير آبهة بحدود الزمان والمكان، بل أصبحت تلغي اسم البلد الذي صنعت فيه السلعة وتضع اسم الشركة بديلًا له.

وقد اختفت من الأسواق، وعلىٰ السلع شعارات رنانة مثل صنع في أمريكا

(١) الصراع الدولي حول الإعلام والثقافة، اسكندر الديك ص/١٠.

Made in U.S.A أو شعار صنع في ألمانيا Made in Germany، واستبدلت بأسماء وشعارات تحمل أسماء الشركات مباشرة مثل IBM، أو هذه البضاعة من صنع شركة PUMA، أو من شركة NIKE، وهكذا.

وبذلك تحول السؤال من: أين صنعت السلعة؟ إلىٰ صيغة ذات دلالة واضحة علىٰ شخصية الشركة المستقلة - من الشركات المتعددة الجنسيات - حيث أصبح السؤال الذي يردده المستهلك: من صنع السلعة؟[1].





(١) آليات العولمة من كتاب دور التربية الإسلامية في مواجهة التحديات الثقافية للعولمة، صلاح الحارثي ص/ ٤٤ وما بعدها.

المبحث الخامس

من يقف وراء العولمة؟

إن المتأمل في أهداف العولمة وآلياتها التنفيذية لا يكاد يخامره شك في أن للأصابع اليهودية والماسونية دور ظاهر في صناعة العولمة، تخطيطًا، وترويجًا، وصياغةً، ومن ثمَّ تحقيقًا للأهداف اليهودية في الهيمنة علىٰ العالم، وتوجيهه وفق المصالح اليهودية.

والذي يؤكد ذلك سلسلة من الأسباب نذكر منها:

١- ما ورد في القرآن الكريم عن أخلاق اليهود؛ من قتلهم الأنبياء، وتحريفهم لكلام الله، وما تنطوي عليه النفس اليهودية من الغش، والكذب، والكيد، والتآمر، والاعتداء، والاستغلال، والسعي في الأرض فسادًا.

٢- تآمرهم علىٰ النصرانية ونبيها عيسىٰ عليه السلام ومحاولة إفسادها من داخلها، وتحويلها من ديانة تقوم علىٰ التوحيد والحق إلىٰ ديانة وثنية بعيدة عن مصدرها الرباني، ومقاصدها الشرعية، بأسلوب الخداع والمكر الذي نفذه شاؤل الذي تسمىٰ ببولس لاحقًا، ثم تكرار المحاولة في الإسلام علىٰ يد عبد الله بن سبأ - كما سبق ذكره - ثم وقوف اليهود وراء الفرق الباطنية التي ظهرت في تاريخ الإسلام.

٣- وقوف اليهود وراء الثورات العالمية التي زعزعت كيان المجتمع البشري، وهزت قيمه الكبرىٰ تحقيقًا لأهداف يهودية مرسومة كالثورة الإنجليزية ١٦٤٠-١٦٦٠م[(١)]، وكذلك ثورة ١٨٣٠م وكذلك دور اليهود البارز في إشعال الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م عن طريق الجمعيات الماسونية المنتشرة في أرجاء فرنسا وقتئذ.

---

(١) الماسونية عقد المولد وعار النهاية، ص/ ٢٦٠.

٤- وقوف اليهود وراء تمويل الثورة الصناعية - عندما امتنع الإقطاعيون عن تمويلها - وبذلك وقعت الثورة الصناعية في قبضتهم منذ اللحظة الأولىٰ، وصاروا مديريها ودهاقنتها، وعن طريق الأرباح الربوية الضخمة، اشتروا الذهب، وتحكموا في عملات الأرض، ثم اشتروا وسائل الإعلام، بل أشعلوا الحروب لترويج صناعة السلاح الذين هم روادها.

٥- إذا كان الاقتصاد، ورأس المال هو أساس العولمة، فمن يملك رأس المال ويسيطر عليه؟ إنهم اليهود.

٦- إذا كانت العولمة تستهدف الدين والخلق والقيم باعتبارها من الخصوصيات، كما تستهدف القضاء علىٰ الحدود الجغرافية، متخطية القوميات والوطنيات، فماذا لدىٰ الماسونية غير هذا؟.

إننا عندما نوازن بين طبيعة المحافل الماسونية، وأهدافها ووسائلها والعولمة وأهدافها، لا نكاد نجد فرقًا يذكر بين الصورتين، إضافة إلىٰ شهادات سجلها بعض الباحثين الغربيين المعاصرين.

وهكذا يظهر دور اليهود في النظام العالمي الجديد، فهل نحن أما مشهد آخر من مشاهد التآمر اليهودي الماسوني علىٰ البشرية؟ تآمر تقوده أمريكا بغطرستها وجبروتها.

وليس ببعيد أن تكشف دراسات قادمة في مستقبل الأيام عن هذه المؤامرة اليهودية الجديدة لتضع الرأي العالمي أمام الصورة الصحيحة لمخطط اليهود، ولعبهم بمصائر ومقدرات شعوب العالم ومنها شعوب العالم الإسلامي.





المبحث السادس

مواقف النخب من العولمة

انطلاقًا من الخلفية المستقرة في الذهن عن العولمة وسياقاتها باعتبارها إنتاج غربي بعامة، وإن كانت الولايات المتحدة سعت لاستثمارها لكي تنشر نموذجها الخاص (بتدبير وتخطيط يهودي)، تفرضه علىٰ الأمم والشعوب في العالم، بعد أن تربعت علىٰ قمة هرم النظام الدولي بعد انتهاء الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفيتي، فبناء علىٰ هذه الخلفية المحفورة في الأذهان (من نزعة السيطرة علىٰ العالم لدىٰ الإدارات الأمريكية المتعاقبة، وتصنيعهم لأسلحة الدمار الشامل، واستخدامهم لها في الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلىٰ السيطرة الأمريكية علىٰ الاقتصاد العالمي، ثم تأسيسها للأمم المتحدة التي أصبحت بوابة الإدارات الأمريكية لتنفيذ سياستها الاستراتيجية بغطاء دولي، وتحت ظلال الشرعية الدولية).

انطلاقًا من هذه الخلفية، ومن تراكمات سلوك الإدارات الأمريكية العدائي ضد العديد من دول العالم، وشعوبها، فقد تعالت صيحات الشعوب ضد العولمة ذات السمات الأمريكية المستبدة.



المطلب الأول: تباين المواقف من العولمة



لقد وقفت النخب السياسية والاقتصادية والثقافية في معظم دول العالم من العولمة مواقف متباينة:

فالأول: رافض للعولمة من آليات ومضامين، مفضلًا الانطواء والانعزال بدل الانفتاح والتفاعل معها.

الثاني: قابل بها وداعٍ إلىٰ نشرها والتفاعل معها.

الثالث: قبل بآليات العولمة، أي بوسائلها وتقنياتها، ورفض مضامينها.

١- فالرافضون للعولمة مطلقًا هم من بلدان الجنوب الذي انطلقوا من نظرة مسبقة مصممة علىٰ الرفض، ولهم أسباب وحجج يسوقونها لتأكيد صحة موقفهم، فالعولمة بنظرهم تعني الاستغلال الاقتصادي، لأن الشركات الكبرىٰ لا يهمها غير الربح واستثمار رأسمالها علىٰ حساب الآخرين، الذين يشكلون النسبة العالية من سكان العالم، والعولمة بنظر هؤلاء عولمة علمانية تهدد الهوية الحضارية وتتنكر للدين، وفتح الأبواب أمامها يعني فتح الأبواب أمام الكفر ليدخل البيوت، والعولمة بهذا المفهوم تهديد للأديان السماوية، وتهديد للهويات الثقافية.

٢- وأما القابلون للعولمة بإطلاق فمعظمهم من الاقتصاديين، وأصحاب الشركات، والرأسماليين، ومن بعض النخب الثقافية الذين تأثروا بطابع الحياة المدنية والاجتماعية في بلدان الغرب نتيجة التقدم الصناعي منذ ثلاثة قرون، وهؤلاء يجدون في العولمة تعظيم الإنتاج، وتقدم قدرات الإنسانية في المعرفة، والسيطرة علىٰ الطبيعة، والقدرة علىٰ معالجة مشكلات البيئة، والحد من زيادة السكان، وإعطاء دور متميز للمرأة تحت شعار (نشر الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان) ويرىٰ هؤلاء في العولمة نوعًا من التفاعل الإيجابي والتكامل علىٰ مستوىٰ الجماعة البشرية ويظهرون إيجابيات العولمة أكثر من سلبياتها، وتلتقي نظرتهم مع الدول والقوىٰ التي تتبنىٰ العولمة في دول الشمال الغنية.

٣- وأما القابلون بالعولمة، والرافضون لمضامينها، لهم وجهات نظر تعبر عن جانب كبير من الحقيقة.

ولا شك أن الرفض المطلق للعولمة فيه خطر علىٰ المجتمعات لاسيما في عالم الجنوب لأنه لا يمكن تجنبها بعد أن فرضت نفسها علىٰ واقع المجتمع والأفراد، فالأمر يستلزم كثيرًا من النظر مراعيًا المصلحة التي يمكن أن تتحقق، وعندئذ يمكن أن ينطلق الموقف منها، ومن تاريخ الأمة وثقافتها وهويتها التي تتميز بها الأمم بما يخدم البشرية ويسعدها.

وإذا كانت العولمة تستخدم ببراعة آليات الانتشار الاتصالية والإعلامية لإشاعة ثقافة وقيم أمة واحدة، وفرضها علىٰ الآخرين بهدف إلغاء هوياتهم الثقافية وذاكرتهم التاريخية فإنها مرفوضة بلا ريب.

أما آليات العولمة فهي نتاج العقل البشري، والجهد الإنساني، والنتاج العالمي لا وطن له، ومن حق كل إنسان أن ينتفع به، وهذا هو شأن التطور الحضاري عبر الحقب والعصور، فكل أمة أنتجت حضارة معينة كان لها نصيب في رفد البشرية بعطاءات العلم والمعرفة، وقد كان للعرب والمسلمين دور لا ينكر في هذا المجال، استفاد من نتاجهم العلمي والمعرفي أمم أخرىٰ ومنها أوروبا.

إذن فالتعامل مع آليات العولمة شيء مقبول مطلوب، والتعامل مع مضامينها أمر آخر، وهو قد يكون مرفوضًا بالكامل، وقد يكون التعامل معه بحذر، فالنتاج الفكري والثقافي الذي يخدم الإنسانية هو نتاج عالمي مقبول يتم التعامل معه في ضوء مبدأ الحوار والمثاقفة، أما النتاج الذي يلغي هويات الشعوب الثقافية والقومية، أو يهدف إلىٰ غزو ثقافات أخرىٰ أو اختراقها، فهو عدوان جديد لابد من التصدي له ورده.

وهذا يقتضي أن نفرق بين العولمة والهيمنة، فإذا كانت العولمة فيها ما يقبل وفيها ما يرد فإن الهيمنة من قبل قوىٰ خارجية مرفوضة بإطلاق.

إن رفض مضامين العولمة ينسجم مع مصلحة الغالبية العظمىٰ لأبناء الأمم والشعوب، ومع ذلك فلا بد من الدعوة إلىٰ الحوار الحضاري، والتفاعل الحضاري، في مقابل الغزو الفكري، والاستلاب للهويات والثقافات والقوميات.



المطلب الثاني: إشكالية تعامل الفكر الإسلامي مع العولمة

إن علاقة المسلمين بالعولمة ترجع إلىٰ الصراع والاحتكاك والتفاعل المستمر تاريخيًا مع صناع العولمة، والذي أخذ أشكالًا متعددة تتراوح بين التبادل الثقافي إلىٰ الحروب الصليبية، وحتىٰ الاستعمار الغربي الحديث، والهيمنة الرأسمالية الغربية. فالعولمة لدىٰ المسلمين تفهم من خلال الرصيد التاريخي للاستعمار في التغريب والهيمنة.

ومن هذا المنظور يتم تحليل العولمة - بالنسبة للمسلمين - ومن ثَمَّ التعامل معها، وبالتالي فإن النظرة للعولمة هي امتداد للبحث عن كيفية التعامل مع الغرب من خلال تأكيد الهوية الإسلامية، إلا أن ذلك يجب أن لا يحول دون النظر إلىٰ العولمة من خلال معايير موضوعية وصحيحة حتىٰ نتمكن من أن نعرف وننكر، بعيدًا عن الأحكام العامة المسبقة، والتي سوف لا تمكننا من التعامل معها بمهارة وموضوعية.

إن معظم أدبيات الفكر الإسلامي الحديث هو في حالة حوار صريح مع الغرب، وهذا ما حدد الإطار العام لتساؤلات الفكر العربي الإسلامي الأساسية، إذ دارت الأسئلة منذ الاحتكاك بالغرب: عما يجب علىٰ المسلمين أن يأخذوه من الغرب لإحياء مجتمعهم؟، كما يتساءلون بأي معنىٰ يظلون مسلمين إذا ما تأثروا بالغرب واقتبسوا منه؟.

واهتم الفكر الإسلامي كثيرًا بما أسماه المفكرون والكتاب: تحديات فكر الغرب، ونموذجه الحضاري، وأنتجت المكتبة الإسلامية العديد من الكتب والأبحاث التي كان همها رد الشبهات، وما يثار حول الإسلام من تساؤلات وانتقادات، وقد حاول الفكر الإسلامي الحديث إثبات قضيتين:

قضية شمولية الإسلام من جهة، وقضية إنسانيته المتفردة من جهة أخرىٰ، مقابل التأكيد علىٰ أزمة الحضارة الغربية بسبب الإفراط في المادية، والبعد عن الأخلاق والقيم الإسلامية، وفي ضوء ذلك يقدم المسلمون مشروعهم الحضاري الذي يعتبر صالحًا لكل زمان ومكان.

المطلب الثالث: خطر العولمة على الهوية

يقصد بالهوية لغة: التفرد والتميز فهي كالبصمة بالنسبة للإنسان لأنه يتميز بها عن غيره، ولا يختلف هذا المفهوم للهوية عما قاله المفكرون المسلمون، فالهوية تعني: تفرد الشخصية الإسلامية بمجموعة من الصفات والخصائص التي تميزها عن باقي الهويات الأخرىٰ، وهي ثوابت الأمة المسلمة التي نزل بها القرآن الكريم، وبينها الرسول ﷺ كالحكمة من وجود الإنسان، وموقعه في هذا الكون، ونظرته إلىٰ الكون، والذات، والآخر، والحلال والحرام، والمقبول والمرفوض، والاعتقاد بأركان الإيمان، والعمل والسلوكيات بمقتضىٰ التشريعات والواجبات التي جاء بها الإسلام.

وتأتي أخطار العولمة باعتبارها قولبة جديدة تهدف إلىٰ وضع الناس في نموذج واحد واختصارهم علىٰ منهج واحد، بتقليل الخصوصيات (عناصر الهوية لكل أمة) أو إلغائها.

والخوف من العولمة ليس مقصورًا علىٰ المسلمين فحسب، وإنما يشمل كثيرًا من الدول بما فيها بعض الدول الغربية المشاركة في صناعة العولمة ويتأكد خوف المسلمين من العولمة إذا تذكرنا أن الإسلام أصبح هدفًا للهجمات الغربية، وحقلًا خصبًا لتشويه وسائل إعلامه التي ربطت بالمسلمين والإسلام كل نقيصة بعد أن انتشرت فكرة الخطر الأخضر، أو الإسلامي كبديل للخطر الأحمر، أو الشيوعي.

فالعولمة ليست محايدة بل تشكل تحديًا يستهدف هوية الأمة وقيمها الحضارية، ومنها تأتي أهمية تأكيد الحفاظ علىٰ الهوية العربية الإسلامية التي من أهم الأهداف التي تسعىٰ التربية العربية الإسلامية إلىٰ تعزيزها وترسيخها لدىٰ النشء والشباب لما يترتب علىٰ ذلك من تربية الانتماء والولاء لهذا الدين، وتحقيق التقدم علىٰ مسارات النهضة والحضارة.

ومن هنا فإنه يتعين علينا أن نوجد لدىٰ الجيل المسلم الحذر من مفرزات العولمة المختلفة، ونربي فيه القدرة علىٰ الاختيار، والتفريق بين الرسائل المختلفة، أو بين ما فيها من خير ومصلحة للفرد والأمة، وبين ما تحمله من شر وإفساد.

المبحث السابع

العولمة إيجابيات وسلبيات

مما لا شك فيه أن العولمة ليست خيرًا محضًا ولا شرًا محضًا - كسائر ما في هذه الحياة - فظاهرها جامع للأمرين معًا، ولكن علىٰ اختلاف في نسبة كل منهما، وقبل أن أستعرض ما في العولمة من إيجابيات وسلبيات أود أن أشير إلىٰ أن العولمة تمثل تطورًا هائلًا في عالمنا المعاصر في مجال التكنولوجيا، ووسائل الإعلام والاتصال، وما نتج عن ذلك من تقريب المسافات بين أجزاء المعمورة، وإشاعة المعرفة والتعاون المثمر بين الأمم والشعوب، وتخفيف الحواجز التي تعيق الاتصال الحر والمباشر بين الأفراد والهيئات والجماعات، حتىٰ أصبح من المعروف إطلاق وصف القرية الكونية علىٰ كافة بقاع الأرض، وشعوبها المختلفة.

ولكن هذا التعاون الدولي في إطار التنوع كان حقيقة قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، وظهور ما يسمىٰ بالنظام العالمي الجديد، فقد كان التعاون الدولي قائمًا علىٰ ميادين التعددية السياسية والثقافية لأمم العالم وشعوبه، وبعد قيام النظام العالمي الجديد، أصبحت العولمة تهديدًا خطرًا علىٰ كيان دول العالم الثالث الذي يضم في دائرته العالم الإسلامي الذي ورث الحضارة الإسلامية القائمة علىٰ أسس روحية ومبادئ إنسانية راقية، منها المساواة بين الناس، ورفض التفرقة علىٰ أساس الدين، أو العرق، أو اللون.

وإليك الحديث عن بعض هذه الإيجابيات والسلبيات علىٰ وجه الإجمال.

المطلب الأول: المظاهر الإيجابية

لا يسع أحدًا أن ينكر ما للعولمة من إيجابيات، وسأتناول هنا فقط بعض الجوانب الإيجابية للظاهرة الثقافية للعولمة من خلال إحدىٰ أدواتها المهمة وهي التكنولوجيا ومنها:

أ- ازدياد قدرة الإنسان المتلقي - لما يطرح عبر الإعلام الفضائي والأرضي - علىٰ تجاوز الدائرة الضيقة التي يوفرها الإعلام الوطني، مما يسمح للفرد بأن يجوب العالم شرقًا وغربًا من مكانه الذي هو فيه، مما يمنحه قدرة علىٰ توسيع ثقافته، وإثراء تجربته في الحياة، بل وقدرته علىٰ المشاركة الفاعلة في الأحداث الجارية.

ب- تجاوز حدود المحذور محليًا، وفتح ملفات لقضايا كان من الصعب الحديث عنها، في ظل الاحتكار المحلي للإعلام، وفي ذلك إثراء للمعرفة، وتفهم لوجهات النظر المختلفة، وتقبل الرأي، والرأي المضاد.

ج- علىٰ مستوىٰ الاتصال عبر الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) توفر تدفق معلوماتي للمعرفة بشكل غير مسبوق، مما يشجع الباحثين والمؤلفين علىٰ الإفادة الجادة من تلك الخدمة.

د- أتاحت هذه التقنيات الإعلامية والاتصالية فرصة فريدة للدعاة والمفكرين المسلمين من أجل الاطلاع علىٰ أحوال الأقليات الإسلامية في شتىٰ بقاع الأرض، وتلمس حاجاتهم ومعاناتهم.

هـ- كما أتاحت هذه الوسائل (الفضائيات والإنترنت) ميدانًا فسيحًا للدعوة إلىٰ الله ونشر الإسلام في أصقاع الأرض.

ومع هذه الإيجابيات فهناك جوانب مظلمة، وسلبيات تحملها معها العولمة في جانبها الثقافي، والاقتصادي، والأخلاقي، والاجتماعي، وإليك الحديث عن بعض هذه السلبيات باختصار.

المطلب الثاني: المظاهر السلبية

١- في الثقافة والأخلاق:

أ- سعي العولمة الثقافية بهويتها الغربية نحو تعميق التعلق بمظاهر الحياة المادية، والانكباب على شهواتها الحسية، وفي المقابل يتم إغفال الآخرة، وازدراء الغيبيات، ووصمها وأصحابها بالخرافة والسذاجة.

ب- كسر حواجز مهابة الدين والمقدسات بدءًا بامتهان الذات الإلهية والنبوة والأنبياء، والتلاعب بهذه المقدسات، وتحطيم قدسيتها لدى الناشئة، مما يجعلهم ينشؤون وهم قد فصلوا عن دينهم وتباعدت الفجوة بينهم وبين تراثهم.

ج- انتشار التحلل الخلقي، وبالذات في ميدان المرأة التي عمد تجار العولمة إلى تسليع جسدها، مما أجج مشاعر الشباب، وحرك غرائز المراهقين والمراهقات، مما يمكن تسميته بثقافة الإسفاف والتبذل التي لا تتحرج بعض القنوات الفضائية الإعلامية والاتصالية من امتهان هذا المسلك الفاضح الماجن.

د- إعلاء شأن الملكية الفردية، والحرية المطلقة حتى لو أدى ذلك إلى الخروج على حدود آدمية الإنسان وثوابته الدينية.

هـ- صرف الشباب إلى الانغماس في ممارسة هوايات وضيعة كالرقص والغناء والاهتمام بالهوايات الهابطة التي من شأنها أن تستنزف الجهد والمال بلا فائدة ترجى.

و- الترويج للتعليقات الغربية، وبثها في المجتمع المسلم بما يمثل خروجًا على قيمه وعاداته وتقاليده، من أنواع الألبسة (كمظهر السلاسل في اليد، والعنق بالنسبة للشباب، وإطالة الشعور تشبهًا بمغن، أو موسيقي، أو لاعب كرة بعينه...) وأنماط المأكولات الغربية، وطرق تناولها، وأساليب التعامل في المناسبات[١].

---

(١) انظر دور التربية الإسلامية في مواجهة التحديات الثقافية للعولمة ص/ ٨٣ وما بعدها.

ز- الكم الهائل مما يبث عبر شبكة التلفزة والإنترنت من أفلام جنسية، ومواد إعلامية تروج الفاحشة والرذيلة، وقد بلغ هذا النوع من المواد والأفلام من الكثرة لدرجة أن ألمانيا - التي يسمح قانونها بعرض العملية الجنسية علىٰ المسرح مباشرة أمام المشاهدين - قامت بإغلاق ٢٠٠ موقع إباحي عام ١٩٩٦، وهناك نصف مليون موقع علىٰ الانترنت (عام ١٩٩٧) يتعامل مع الصورة المخلة بالآداب، ويشرح طرق استعمال المخدرات، ووسائل استخدام العنف.

إلىٰ غير ذلك مما يكون دخيلًا علىٰ أبناء المسلمين وبناتهم، ويمثل في الوقت نفسه غارة ثقافية وحشية علىٰ أنماط وأساليب وطرائق الحياة الثقافية الإسلامية.

٢- المخاطر الاجتماعية:

ويتمثل ذلك بمحاولات الدول الغربية - تحت مظلة الأمم المتحدة - أن تفرض أنموذجها الاجتماعي، وأن تفرض علىٰ العالم قيم المجتمع الغربي في مجال الأسرة والمرأة من خلال المؤتمرات الدولية في المجالات الاجتماعية المختلفة، ومن خلال المؤتمرات الإقليمية، ولجان المتابعة لتوصيات هذه المؤتمرات المتعددة والمنتشرة، والتي تدعو إلىٰ اعتماد النموذج الغربي في الحياة الاجتماعية والسكان، كما أن توصيات هذه المؤتمرات قد تصل إلىٰ ما يشبه القرارات الملزمة.

ومن أبرز توصيات هذه المؤتمرات:

أ- الحرية الجنسية، وإباحة العلاقات الجنسية خارج إطار الأسرة، وتقليل قيمة الزواج.

ب- تكريس المفهوم الغربي للأسرة، وهو أنها تتكون من شخصين فأكثر، ولو كانا من نوع واحد.

ج- إباحة الشذوذ الجنسي بكل أنواعه، ومن المعلوم أنه مقرر في بعض نصوص القوانين الغربية.

د- فرض مفهوم المساواة الشكلي بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات والحياة العامة[1].

٣- المخاطر الاقتصادية:

إن الصورة الحاضرة للعولمة الاقتصادية تعتبر امتدادًا لماضي الرأسمالية المتوحشة التي تجعل الأثرياء أكثر ثراءً والفقراء أكثر فقرًا[2]، وسوف تترك وراءها الملايين من العمال الساخطين، وحالات اللاَّمساواة، والبطالة، والفقر المستوطن، واختلال التوازن الاجتماعي، بالإضافة إلىٰ تخلي الدولة عن مواطنيها، ونشوء طبقات فاحشة الثراء داخل مجتمع الدولة الواحدة، وكذلك ما تسببه في تكريس الهوة بين الدول النامية، والدول المتقدمة، وبين أغنياء العالم وفقرائه.

وإليك بعض الأمثلة عن عمق مخاطر العولمة الاقتصادية وآثارها الاجتماعية:

أ- ثلاثة أغنىٰ أغنياء أمريكا ثروتهم أكثر من ثروة قارة أفريقيا كلها والتي يسكنها ٦٠٠ / مليون نسمة.

ب- ٣٠ ٪ من سكان العالم دخلهم اليومي يقل عن دولارين للفرد الواحد، و٢٠ ٪ من سكان العالم يقل دخلهم اليومي عن دولار واحد، وكلهم من الدول النامية.

ج- ٢٠٪ من سكان العالم يملكون ٨٠ ٪ من ثروته، والباقي من السكان يملكون الباقي من الثروة.

---

(١) ومن أبرز هذه المؤتمرات مؤتمر القاهرة عام ١٤١٥-١٩٩٤م ومؤتمر بكين عام ١٤١٦ هـ -١٩٩٥م، المصدر نفسه.

(٢) انظر آثار العولمة علىٰ البلدان النامية في المجالين الثقافي والتواصلي، ناصر الدين الأسد، سلسلة الدورات، الدورة الخريفية لسنة ٢٠٠١ الرباط ص/ ١١ - ١٢١، والعولمة الثقافية وأثرها علىٰ الهوية العربية الإسلامية، د. محمد الهواري ص/ ١٤ ومخاطر العولمة، روبرت إسحاق، نجمة سعيد الحسنية الدار العربية للعلوم بيروت لبنان ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.



د- خمس دول غربية فيها ١٧٢ شركة من أصل ٢٠٠ شركة كبرىٰ في العالم، وهي أمريكا، واليابان، وفرنسا، وألمانيا، وبريطانيا[١].

هـ- في العالم ٣٥٨ شخص يملكون ما يملك ٤٥ ٪ من سكان العالم أي ٢,٦ مليار شخص.

و- هناك توقعات بازدياد البطالة والفقر مستقبلًا، فحوالي ٣٠ ٪ من طاقات العمل تكفي عندما تدخل التقنية الالكترونية في الإدارة وسوق العمل.

ز- الأرباح المتوقعة من اتفاقيات منظمة القات العالمية قد تصل إلىٰ ٢٠٠ مليار دولار، ومعظمها يذهب إلىٰ الشركات الغربية، بينما لا يحصل العالم العربي إلا علىٰ ١ ٪ منها[٢].

إضافة إلىٰ دور الشركات متعددة الجنسية التي باتت تسيطر علىٰ العالم، فالاقتصاد العالمي يعمل علىٰ تحطيم الحواجز الاقتصادية والمالية بين الشعوب، ولم يكن ذلك لهدف إنساني، وإنما من أجل مصلحة الشركات العالمية نفسها.



(١) انظر آثار العولمة علىٰ البلدان النامية في المجالين الثقافي والتواصلي، ناصر الدين الأسد، سلسلة الدورات، الدورة الخريفية لسنة ٢٠٠١ الرباط ص/ ١١ - ١٢١، والعولمة الثقافية وأثرها علىٰ الهوية العربية الإسلامية، د. محمد الهواري ص/ ١٤ ومخاطر العولمة، روبرت اسحاق، نجمة سعيد الحسنية الدار العربية للعلوم بيروت لبنان ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) انظر العولمة مقاومة واستثمار د. إبراهيم الناصر، البيان، موقع إلكتروني، وأيضًا مخاطر العولمة ص/ ١٣٥.



المبحث الثامن

كيف نستثمر العولمة؟

لقد أصبحت العولمة واقعًا لا مفر من التعامل معه، فليس من العقل في شيء أن نواجه العولمة برفضها كلية، فإن العولمة رغم أخطارها فإنها تحمل معها الكثير من المكاسب والفرص التي هي جزء من الحركة الفاعلة، والإيقاع السريع لمعطيات العصر - كما سبق بيانه -، والموقف الرشيد هو أن نستثمر الفرص السانحة التي وفرتها العولمة من آليات ووسائل بما يخدم المسلمين، ويحافظ علىٰ هويتهم ويبرز موقف الإسلام ويحمي كيانه، ومن **أمثلة هذه الفرص المتاحة التي يمكن استثمارها:**

١: في مجال الإعلام والاتصالات:

أ- فإن سهولة الاتصال ونقل المعلومات ستحدث نقلة نوعية في أساليب الإدارة والعمل، فيستطيع الأفراد العمل من منازلهم في بعض الوظائف، لاسيما النساء دون حاجة إلىٰ الخروج من المنزل وترك بيوتهن وأطفالهن.

ب- تحرير وسائل الإعلام وتطويرها وسهولة امتلاكها، يتيح مجالًا لأي فرد، أو مجموعة، أو منظمة امتلاك محطة فضائية، أو وسائل إعلام أخرىٰ لنشر الإسلام، والدعوة إلىٰ الله، والدفاع عن الإسلام.

ج- التغطية الإعلامية الواسعة للأحداث من خلال الفضائيات أتاحت تغطية واسعة لقضايا المسلمين، وقلل من فرصة الإعلام الغربي من التعتيم عليها، أو عرضها من وجهة نظره المنحازة في أغلب الأحيان.

٢- في المجال الاقتصادي:

مع التسليم بخطورة العولمة الاقتصادية على اقتصاديات الدول الضعيفة، وخطورة فتح الأسواق، وتحرير التجارة في هذه الدول، والذي سيكون لصالح الشركات الكبرى الغربية إلا أن كثيرًا من هذه الدول إذا أحسنت استخدام إمكاناتها وما تتميز به من موارد، ورشدت سياستها الاقتصادية، وحاربت الفساد المالي والإداري المستشري فإنها يمكنها أن توظف جانبًا من هذه العولمة الاقتصادية لصالحها ومن ذلك:

أ- الانضمام لمنظمة التجارة العالمية يمنع أوروبا من وضع رسم ١٢٪ على المستوردات البتروكيميائية من بعض الدول الإسلامية البترولية.

ب- الانضمام إلى المنظمة سيدفع إلى إزالة معوقات كبيرة تقف في وجه التنمية، وإلى تحديث الأنظمة، وإلى وجود الشفافية، لتصحيح المسارات التنموية، وتحديث الإجراءات القضائية.

ج- الانضمام إلى المنظمة سيدفع التنافس الذي سيحكم السوق الحر المفتوح مما يجعل الشركات الوطنية أقدر على المنافسة والتطوير المستمر، مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى الخدمات، وتحسين مستوى المعيشة والرفاهية، وسيخلق بيئة عمل حيوية، وفعالة أكثر للجميع.

د- انفتاح السوق وإزالة العوائق النظامية سيتيح طرح البدائل الإسلامية في الخدمات؛ كالبنوك الإسلامية التي سيزيد انتشارها في عدد من البلدان مع نجاح التجربة.

٣- في مجال الإنترنت:

أ- الإنترنت ثمرة من ثمرات التقنية كسرت احتكار الغرب للمعلومات، وأتاحت فرصة للوصول إلى المعلومات في المجالات المختلفة بنفس السرعة المتاحة للغربيين سواء كانت معلومات علمية أو إخبارية، وإحسان استخدام المعلومة، ومعرفة الوصول إليها يقلل الهوة بيننا وبين الغربيين في مجالات عدة.

ب- كذلك فالإنترنت منبر حر دون رقيب؛ وميدان فسيح دون قيود لكل من يحسن استثماره واستخدامه، فيستطيع أي مفكر مسلم، أو داعية مسلم، أن يطرح ما يريد من خلال صفحات لا حصر لها، ويمكن نشر الإسلام والعلم الشرعي، وإتاحته لكل من يطلبه دون عناء. بل يمكن أن تصدر صحف ومجلات دورية دون قيد أو شرط متجاوزة التعتيم الإعلامي المفروض علىٰ أخبار الأمة والحركات التحررية فيها، ومن أمثلة هذه التجارب الناجحة: موقع الإسلام اليوم، وإسلام أون لاين ومئات المواقع الإسلامية الأخرىٰ التي صار لها دور فعال في مجال الدعوة والإصلاح.

٤- المجال الثقافي والفكري والاجتماعي:

نستطيع أن نوظف المشاركة في هذا النوع من المؤتمرات واللجان في طرح الرؤىٰ الإسلامية في المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية، كما أن منتديات حوار الحضارات ستكون ميدانًا فسيحًا للغزو الفكري المضاد، وسنجد أننا استطعنا القيام بواجب الدعوة إلىٰ الله والشهادة علىٰ الناس من خلال هذه المنتديات والفعاليات، وسنجد أننا نملك ما لا يملكه الآخر، وأنه أتيحت الفرصة لنا لإبراز جوانب القوة التي نملكها أمام قوة الغرب المادية والتقنية، ولعله أن يهتدي من أراد الهدىٰ من خلال الدعوة إلىٰ المنهج الحق، وبيان محاسنه ومقارنته بفساد مناهج الآخرين في هذه المجالات.

إلىٰ غير ذلك من الفرص الكثيرة الأخرىٰ التي يمكن للمتأمل أن يجدها فيما تتيحه المعطيات الجديدة المشكِّلة لبيئة العولمة.





المبحث التاسع

مستقبل العولمة

ليس من الصعب علىٰ دعاة العولمة وأنصارها أن يصوروها علىٰ أنها هي الخيار الوحيد للبشرية، واصفين إياها بالحتمية حينًا والاتجاه الواحد الذي لا خيار لأحد في سلوك غيره حينًا آخر.

فمن كبار مروجي العولمة ومنظريها (توماس. ل. فريدمان) الذي يرىٰ أن هناك نموًا تلقائيًا لملايين الناس الذين يطالبون بمزايا العولمة علىٰ الرغم من ظلمها لهم فهم يدقون بابها مرة بعد أخرىٰ مطالبين الالتحاق بالنظام، إنهم يريدون أن يحصلوا علىٰ قطعة من النظام لا أن يدمروه[1].

كما يؤكد هذه الحتمية أحد أبرز دعاة العولمة والليبرالية الجديدة (فرانسيس فوكوياما) الذي يصور الوصول إلىٰ العولمة بأنها لا توجد إلا رحلة واحدة، ووجهة واحدة[2]. ومن يتخلف عن الركوب فسيدفع ثمن خطئه.

وقد نقبل القول بأنه التقدم العلمي حتمي، أو حتىٰ تطوير الثقافة أمر حتمي، إذ كلاهما يعبر عن نزعة طبيعية لدىٰ الإنسان للاستكشاف، وحب الاستطلاع، ولكن قبول هذا أو ذاك كظاهرتين حتميتين لا يلزمنا بقبول الحضارة الغربية كظاهرة حتمية[3].

(١) السيارة ليكساس وشجرة الزيتون ص/ ٤٤٨.

(٢) نهاية التاريخ ص/ ٣١٠ ترجمة بإشراف مطاع صفيدي.

(٣) العرب والعولمة مركز دراسات الوحدة العربية ص/ ١٦٨.

ويخلط فريدمان قصدًا بين آليات العولمة وفلسفة وأيديولوجية العولمة، ولم يفرق بينهما مما أدىٰ إلىٰ التعمية والتضليل، وقد وقع بعض المثقفين العرب في هذا الخلط، وخصوصًا أن فريدمان يوضح في مواضع أخرىٰ من كتابه (حقيقة العولمة) بأنها الليبرالية الغربية، وخاصة ثقافة القيم الأمريكية[1].

ومهما كانت دعاوىٰ مروجي العولمة ودهاقنتها فإننا نتساءل عن مستقبل العولمة، وهل هي حتمية تاريخية كالحتمية التاريخية التي كانت شعارًا للشيوعية في النصف الأول من القرن العشرين، ثم أصبحت خرافة من الخرافات، وكان نهايتها مزبلة التاريخ، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ونظريته الشيوعية؟ !!!

يظهر للمتأمل في واقع العولمة وأدبياتها - والله أعلم - أن هيمنة الغرب وبالذات الولايات المتحدة - الدولة المركزية في عملية العولمة - لن تستمر طويلًا وقد بدأت بوادر ذلك مع الأزمة المالية والاقتصادية التي يشهدها العالم اليوم، والتي امتدت آثارها السلبية إلىٰ شتىٰ بقاع العالم، وقد أكد تراجع الدور السياسي والاقتصادي للولايات المتحدة كثير من المفكرين من خلال تقارير مراكز الأبحاث والدراسات الغربية، وإن كانت ستبقىٰ ذات مركز عالمي مهم لكن ليس مهيمنًا.

ولعل من أبرز أسباب هذا التراجع:

أ- أن فكرة العولمة ليست مثاقفة بين المجتمعات، وحوارًا بين الحضارات، والتي من شأنها أن تتلاقح فيها الحضارات مع الاحتفاظ بالخصوصيات، وإنما هي هيمنة نمط واحد بكل ما تحمله من ازدواجية في المعايير، وتناقض في القيم، وفوضىٰ في الحياة الاجتماعية، وهذا يؤدي إلىٰ روح المقاومة، والمطالبة، والتدافع بين الأمم، لاسيما عندما تبدأ عملية الاختراق، والتحدي الثقافي، والفكري، والاقتصادي، والسياسي.

---

(١) العولمة النيوليبرالية ص/ ١٦٣.

ب- إن إيديولوجيا العولمة التي تقوم على الترغيب بمجتمع الليبرالية الغربية كما في فكرة كتاب (نهاية التاريخ) عند فوكوياما، وعلى الترهيب من الصدام الحضاري كما في أطروحة كتاب (صدام الحضارات) عند هنتنجتون) وهما مفكران أمريكيان يستشرفان علاقة الغرب بالعالم الآخر، وهما فكرتان توحيان بأن هذه الإيديولوجيا التي تسعى إلى إلغاء الخصوصيات الحضارية بالترغيب والترهيب يخالف طبائع الأشياء، مما يسبب قيام معاكس في كل حضارة، وبالذات الحضارة التي تملك عناصر القوة والمنعة، ثم يحصل الصراع الذي يعتقده هنتنجتون والإسلام في طليعة تلك الحضارات، وخاصة في ظل استهداف الإسلام، بخصومة ضخمة بالرغم من حالة ضعف المسلمين الراهنة.

ج- إن التوقع بأن العالم سيتحول إلى ولايات أمريكية كما يعتقده أحد مؤلفي كتاب (فخ العولمة) في ندوة له هو مخالف للسنة الإلهية التي تحكم هذا الكون، ومن ذلك سنة التدافع والصراع التي تحكم العلاقة بين الحق والباطل منذ وجود الإنسان على هذه الأرض، فالاختلاف والتدافع والصراع كانت من سمات الحياة البشرية عبر التاريخ، بسبب الاختلاف بين الحق الذي جاء به الأنبياء، والباطل الذي يدعو إليه أهل الجاهلية، أو بسبب نوازع النفس البشرية، وأنانيتها وعنصريتها، وظلمها، وبغيها على الآخرين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[1].

فضلًا عن أن كثيرًا من المفكرين والكتاب الغربيين قد تصدوا لظاهرة العولمة مفندين حقيقتها، وأهدافها وأخطارها على البشرية، وخواء شعاراتها، وزيف وعودها. ومن ذلك ما كتبه المفكران الألمانيان بيترمارتين، وهارلد شومان في معرض ردهما



(١) سورة البقرة آية/ ٢٥١، وانظر العولمة مقاومة واستثمار د. إبراهيم الناصر موقع البيان.

علىٰ من يشبه العولمة بالأحداث الطبيعية التي لا قدرة لنا علىٰ الوقوف بوجهها، بمعنىٰ أنها نتيجة حتمية لتطور تكنولوجي واقتصادي، ليس بوسعنا سوىٰ الإذعان لها فيقولان: في الواقع أن هذا ليس إلا ثرثرة[1]، ومن أجل ذلك وغيره نقول: إن الغرب وبالذات الولايات المتحدة لن تستمر في سيطرتها علىٰ العالم، أو الانفراد بقيادته، وإن حافظت علىٰ مركزها العالمي إلىٰ حين والله أعلم.





(١) فخ العولمة، هانس بيترمارتين، وهارالد شومان ص/١٠ - ٣٣، وانظر العولمة النيولبرالية ص/١٧٠، وانظر مزيدًا من أقوال الغربيين عن العولمة ومستقبلها وأخطارها، صدام الحضارات، صموئيل هنتنغتون ص/٤١، والسيارة ليكساس ص/٣١.

الخلاصة

العولمة مصطلح حديث، تعني تداخل الاقتصاد والسياسة والثقافة والسلوك دون إعتداد بالحدود السياسية للدول أو الأنظمة الحكومية، وهي محاولة لإقصاء الآخر اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا... الخ وإحلال اقتصاد وسياسة وثقافة العولمة مكانها.

وهذا الذي يفرق بينها وبين عالمية الإسلام - مع اتفاقهما في أصل الاشتقاق (عالم) - فعالمية الإسلام تعاون، وتعارف، وإصلاح، بالحكمة والحوار، وأما عالمية العولمة فتعني الهيمنة وتهميش الآخر، وتقوم العولمة علىٰ ثلاثة ركائز رئيسية: تعميم الرأسمالية، والقطب الواحد، وثورة المعلومات. وأما مجالاتها فمتعددة: الاقتصاد، والاجتماع، والفكر، والمجال العسكري، وغيره. وأما آلياتها فهي: هيئة الأمم المتحدة، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، والشركات متعددة الجنسيات.

ولا ينبغي إغفال دور اليهود في صناعة العولمة والترويج لها، تحقيقًا لأهدافهم في الهيمنة علىٰ العالم، وتوجيهه خدمة لمصالحهم.

وقد تفاوتت مواقف النخب من العولمة بين رافض لها بإطلاق، وقابل لها بإطلاق وبين قابل للعولمة، ورافض لمضامينها.

ولا شك أن العلاقة بين الفكر الإسلامي والعولمة تكتنفها بعض الإشكاليات بسبب الصراع والاحتكاك التاريخي بالغرب فهي تعني لدىٰ الإسلاميين التغريب والهيمنة، ويأتي خطر العولمة علىٰ الهوية الإسلامية باعتبارها قولبة جديدة تسعىٰ

لصهر الناس وفق نموذج واحد، وهذا يتنافى مع خصوصية الإسلام عقيدة وشريعة.

ومع ذلك فإن للعولمة إيجابيات وسلبيات، إيجابيات ظاهرة ينبغي أن يستفاد منها فيما يخدم الدعوة الإسلامية وحضارة الأمة، وفيها جوانب مظلمة ينبغي تجنبها.

وهذا لا يعارض ضرورة استثمار العولمة في شتى الجوانب التي تتيحها للأمة فيما يحقق مصالحها في مجال الإعلام، والإنترنت، وفي المجال الفكري والثقافي.

ويرى المراقبون المنصفون من المفكرين: أن العولمة والقوى الداعمة لها لن تستمر طويلًا، وقد بدت بوادر ذلك مع الأزمة الاقتصادية التي يشهدها العالم اليوم، وانعكاسات ذلك على العالم كله، ويؤكد هذه الحقيقة المراكز البحثية المتخصصة في الغرب، ومع القول ببقاء دور لأمريكا في العالم كقوة كبرى، ولكن ليس دورًا مهيمنًا كقوة وحيدة تتصرف بمصائر العالم المعاصر.

